من تراث الغمارى

خواطر دينية

لأبى الفضل عبد الله بن محمد
ابن الصديق الحسنى الغمارى
عفا الله عنه

الجزء الثانى

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ-١٩٩٨م

مكتبة القاهرة
لصاحبها علي يوسف سليمان
ت ٥٩٠٥٩٠٩٠ ص.ب ٩٤٦ الأزهر
بالصنادقية ميدان الأزهر الشريف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢، ٤٣]

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]

صدق الله العظيم

خواطر دينية (الجزء الثانى)

عنيت بطبعه ونشره وتوزيعه

مكتبة القاهرة

الرئيسى: ١٢ ش الصنادقية بالأزهر الشريف

الفرع: ١١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٥٩٠٥٩٠٩

ص. ب. ٩٤٦ العتبة - القاهرة - جمهورية مصر العربية

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الأولى

قام بالتصحيح والمراجعة: محمد أحمد أمان

إشـراف: محمد بن على بن يوسف

رقم الايداع بدار الكتب المصرية : ٨٤٣٣/ ٩٨

الترقيم الدولى: I. S. B. N

977 - 5437 - 50 - 4



مقدمة

الحمد لله المنعم الوهاب الرحيم التواب. فاتح الأبواب. لمن التجأ إليه وأناب. أحمده وأشهد أن لا إله إلا هو، شهادة عبد مخلص أواب. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، سيد المقربين الأحباب. ﷺ صلاة وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم المئاب. والرضا عن آله الأكرمين، وسائر الأصحاب.

أما بعد: فهذا هو الجزء الثانى من **«خواطر دينية»** وهو على نمط سابقه، فى اشتماله على بحوث وفوائد وأحكام، فى مسائل مختلفة. بعضها مبتكر جديد، لم أسبق -بفضل الله- إليه. وأوردت فيه محاضرتين قيمتين، القاهما أخى العلامة المحقق السيد / حسن حفظه الله، وأدام توفيقه.

أحداهما: عن المرأة فى الإسلام، بيَّن فيها كذب المستشرقين والمبشرين، وأذنابهم الذين يزعمون أن الإسلام بخس المرأة حقها؛ وعزلها عن شئون الحياة عزلاً تامًا.

والأخرى: عن الزوايا الصوفية، وأثرها فى نشر الإسلام، وبث تعاليمه فى القارة الأفريقية. وما قام به رجالها من محاربة المستعمرين والمبشرين، بالسيف والقلم، وبالجهاد والجدال. حتى اعترف لهم بذلك أعداء الدين أنفسهم، وصرحوا أن لا أمل لهم فى نشر المسيحية، ما دامت الزوايا قائمة.

والمحاضرتان تنبئان عن اطلاعه، وجودة نظره، ودقة استنباطه زاده الله علمًا وتوفيقًا وتحقيقًا.

كذلك أدرجت فيه بحثًا نفيسًا لصديقنا الدكتور عز الدين عبد القادر، بارك الله فى عمره. بيَّن فيه بالأدلة الواضحة: أن الإسكندر الأكبر، ليس هو ذا القرنين المذكور فى القرآن. خلافًا لما يعتقده كثير من الناس، بل هو غيره. وذكر اسمه، وحدد موضع السد الذى بناه تحديداً علميًا مطابقًا للحقيقة والواقع. فكشف بذلك عن كثير من الاستفهامات والتخمينات التى كانت تدور حول سد ذى القرنين؟ وهل هو سور الصين

العظيم؟ أم غيره؟ فهو بحث ممتع، أمتع الله بصاحبه، وأطال عمره فى عافية.

وأرجو أن ينفع الله بهذا الجزء، كما نفع بصنوه، وأن يجعلهما خالصين لوجهه الكريم. إنه قريب مجيب، سميع الدعاء لطيف لما يشاء.

المؤلف

عبد الله الصديق الغماري

اتحاد البلاد الإسلامية فى الصوم

كتب شقيقنا الحافظ أبو الفيض -رحمه الله تعالى- كتابًا بيَّن فيه بالدلائل القوية المتعددة، وجوب اتحاد المسلمين فى مواعد الصيام فى رمضان، ومواعد الإفطار بانتهائه، بحيث إذا رؤى الهلال فى مصر مثلا، وجب العمل بتلك الرؤية فى بلاد المغرب، وبالعكس. وهذا الرأى موافق لروح الشريعة الإسلامية.

فإن الدين الإسلامى اتى بتوحيد الله، وإفراده بالعبادة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] وفرض على المسلمين حج بيت واحد ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وأوجب عليهم الاتجاه إليه فى صلاتهم أينما كانو ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] وجعل لهم عيداً فى الأسبوع، يجتمعون فى المساجد. حيث يستمعون إلى درس دينى، يعرفون منه أحكام

---

(١) رأيت وريقات، زعم كاتبها أن المراد بذكر الله: صلاة الجمعة. وهذا من بدع التفاسير. وهو باطل من وجوه:

أحدها: مخالفته لسياق الآية، لأن بقيتها تقول ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١] ثبت فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه: أنهم لما خرجوا لاستقبال العير التى جاءت من الشام تحمل الطعام تركوا النبى ﷺ قائمًا يخطب على المنبر، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً. وهذا يبين أن ذكر الله فى الآية: خطبة الجمعة، ومن هذه الآية أخذ العلماء ان الخطبة تكون من قيام.

ثانيها: قوله فى الحديث الذى أوردناه «فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» يفسر الذكر فى الآية بالخطبة، وخير ما فسر به الوارد. فلا يجوز العدول عنه إلى غيره.

ثالثها: لو كان المراد الصلاة، لقيل: إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إليها. فإنه أوضح وأوجز، وليس هذا من المواطن التى يستحسن فيها الإطناب، بذكر الظاهر بدل المضمر، كما يعلم من علم المعانى.

رابعها: تقرر فى علم الأصول: أن الكلام إذا احتمل تاسسًا وتاكيداً، وجب حمله على الأول دون الثانى. وعلى هذا إذا فسر ذكر الله بالصلاة، كانت الآية مؤكدة لما افادته آيات كثيرة، من وجوب الصلاة. وحتى لو ادعى مدع أنها أفردت بالذكر اعتناء بهاء، فإن الاعتناء تاكيداً ايضًا. بخلاف ما لو فسرناه بالخطبة، فإن الآية حينئذ تفيد معنى جديداً وتؤسسه، وهو وجوب السعى للخطبة. =

دينهم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ﴾ [الجمعة: ٩] وذكر الله خطبة الجمعة(١). لما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة –رضى

= **خامسها**: المقرر فى علم الأصول أيضًا: أن الصلاة واجب موسع، وليس مضيقًا كالصوم. والواجب الموسع لا يجب السعى إليه فى أول وقته، بإجماع العلماء. وبدليل أن الله تعالى لم يوجب السعى إلى صلاة الظهر، فى بقية أيام الأسبوع. فلما أوجب السعى عند نداء الجمعة خاصة، علمنا أن السعى لأمر غير الصلاة، وهو الخطبة جزمًا.

سادسها: أن الصلاة متماثلة فى سائر الأيام، لا فرق بين الجمعة ولا غيرها. إذ هى كما قال الفقهاء: عبادة ذات أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. والجماعة مشروعة فيها، فى سائر الأيام أيضًا، وجوبًا أو ندبًا كما هو معروف. فلما أوجبت الآية السعى عند نداء الجمعة، علمنا بالضرورة العقلية: أن السعى ليس لأجلها، بل لأجل الخطبة التى لا تكون إلا فى ذلك اليوم.

سابعها: أن الصلاة لا تسمى ذكر الله، حقيقة لغوية رلا شرعية. وفى القرآن آيات، تدل على أن الصلاة غير ذكر الله. اقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه: ١٤] فهذا دليل قاطع على أن الصلاة غير الذكر. ولو كانت عينه، لكان معنى الآية: وأقم الذكر لذكرى. وهو معنى سخيف يتنزه القرآن عنه. وقوله تعالى: ﴿ **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ** ﴾ [النور: ٣٧] دليل أيضًا على أن الصلاة غير الذكر، إذ لو كانت عينه، لكان المعنى: لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام ذكر الله، وهو سمج ركيك. وقوله عز وجل: ﴿ **تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت ٤٥] كسابقيه تغايرهما.

ثامنها: قد يطلق لفظ الذكر على الصلاة، مجازاً مرسلاً، علاقته الكلية والبعضية. لكن لا يخفى على من مارس قواعد الأصول أن آيات الأحكام، لا تحمل على المجاز، بل يجب حملها على الحقيقة، والخطبة ذكر الله حقيقة لغوية وشرعية، فتفسير الآية بها متعين.

تاسعها: صحت الأحاديث عن النبى ﷺ: أن من لغا يوم الجمعة والإمام يخطب، فليست له جمعة، وأن من مس الحصى فقد لغا، ومن قال لصاحبه: أنصت، فقد لغا، وهذا دليل قاطع على أن السعى لأجل الخطبة. وهو يرد قول من زعم أن استماع الخطبة مندوب، وهو زعم فاسد. إذ كيف يكون استماع الخطبة مندوبًا، والأحاديث تفيد بطلان جمعة من يلغو فيها؟!!

عاشرها: أن الأحاديث الصحيحة التى أخبرت بكتابة الملائكة لأسماء المبكرين إلى المسجد يوم الجمعة، صرحت بأنه إذا خرج الإمام، طوت الملائكة الصحف، وجلست لاستماع الذكر، يعنى الخطبة. ولم يرد فى شىء من طرق تلك الأحاديث: أن الملائكة يستمرون فى كتابة الصحف إلى حين إقامة الصلاة، وهذا دليل قاطع على أن السعى لأجل استماع الخطبة.

حادى عشرها: أنه اجتمع فى عهد النبى ﷺ يوم عيد وجمعة، فصلى بهم صلاة العيد، وخطب خطبته وقال فى آخرها «وإنا مجموعون» ورخص لأهل العوالى: ألا يحضروا معه صلاة الجمعة. لأن الغرض من حضورها سماع الخطبة، واستفادة ما فيها من أحكام ومواعظ. وقد استفادوا ذلك من سماع خطبة العيد، فيمكنهم أن يصلوا الظهر فى مسجدهم بالعالية، من غير أن يتحملوا مشقة السعى إلى المدينة.

الله عنه– قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرَّب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(١) وشرع الجماعة فى الصلوات الخمس، ليجتمع المسلمون بعضهم ببعض، كل يوم خمس مرات. ونهى عن الفرقة والاختلاف، وعما يؤدى إليهما من قول وعمل. وقال النبى ﷺ «يد الله على الجماعة»(٢) فإذا اتحد المسلمون فى مواعد الصوم والإفطار، مع تنائى البلاد، وبعد الديار. كان ذلك مظهراً من مظاهر الوحدة التى جاء بها الدين، بل هى المقصودة من معظم أحكامه. ومع قوة هذا الرأى، وموافقته لحكمة التشريع، عارضه بعض أفاضل علماء المغرب، معارضة واهية. لم يأت فيها بدليل، ولا شبه دليل. غير أنه أبدى إشكالاً، ظنه ناقضًا لذلك الرأى من أساسه.

حيث قال: إذا ظهر الهلال بالمشرق، فإن الوقت يكون فى المغرب، العصر أو بعده بقليل. وعليه فيجب على من يعمل برؤية المشرق: أن يمسك عن المفطرات فى ذلك الوقت، لأنه نهار رمضان برؤية المشرق. وقد يكون اليوم الذى يمسكون فيه عن الطعام، اليوم التاسع والعشرين. فإذا اعتبر من رمضان صار شعبان ثمانية وعشرين يومًا. هذا حاصل إشكاله، وبيان فحواه. وهو إشكال باطل، وعن حلى التحقيق عاطل. وإنى لأعجب من صاحبه كيف خفى عليه بطلانه؟ وهو واضح وضوح الشمس فى كبد السماء!! أم كيف تخيله أمراً ثابتًا مع أنه هباء فى هباء؟!! يحسبه الناظر فيه شيئًا، وهو شىء لا يعبأ به، ويخاله القارىء له كلامًا، وهو هذر وهراء.

وقبل كشف أستاره، وإبداء عواره نبين حقائق متفقًا عليها بالإجماع، تحريراً لمحل النزاع.

١– لا خلاف بين المسلمين: أن الله تعالى ربط عبادتى الحج والصوم برؤية هلال الشهور

---

(١) أل للعهد، أى الذكر المعهود، وهو الخطبة. فالحديث رتب فضل التبكير إلى الجمعة، على استماع الخطبة. بحيث أن الملائكة الذين يكتبون المبكرين إلى المسجد، يطوون صحفهم إذا خرج الإمام، ويجلسون لاستماع خطبته.

(٢) كثير من الناس يقولونه بلفظ «مع الجماعة» ولم يصح فى شىء من طرق الحديث. وإنما ثبت بلفظ «على الجماعة» وهو الموافق للقرآن ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

العربية. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال النبى ﷺ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته».

٢– ولا خلاف أن الليل فى عرف الشرع، يبتدئ بغروب الشمس، وينتهى بطلوع الفجر. حيث يبتدئ النهار، وينتهى بالغروب. قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقال النبى ﷺ «إذا أدبر النهار من ههنا –يعنى المشرق– وأقبل الليل من ههنا –يعنى المغرب– فقد أفطر الصائم»[١] ومما كان يدعو به ﷺ، عند أذان المغرب «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لى».

٣– ولا خلاف أيضًا أن الليل ينسب إلى اليوم الذى يسفر عنه صباحه، لا لليوم السابق. قال الله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] أى ليلة يسفر صباحها عن يوم الصيام.

٤– ولا خلاف بين العقلاء: أن الهلال يظهر بعد غروب الشمس، أى بعد دخول الليل.

والذى نقوله وندعو إليه: أنه إذا ظهر الهلال فى بلد، وجب العمل به على البلاد التى تشاركه فى جزء من الليل. فلو ثبتت رؤية هلال رمضان فى الحجاز مثلاً، وجب الصيام على العراق وإيران وتركيا والشام ومصر والسودان وشمال افريقيا، وإن كان بعض هذه البلاد يتقدم على الحجاز فى الوقت ساعة أو أقل أو أكثر، وبعضها يتأخر عنه ساعة أو أقل أو أكثر. فإنها جميعًا تشاركه فى جزء من الليل الذى هو وقت ظهور الهلال، ووقت رؤيته، ووقت نية الصوم أيضًا.

فمناط وجوب الصوم –كما تبين– هو اشتراك البلاد، مع بلد الرؤية فى جزء من الليل، ولا يضر التقدم عليه أو التأخر عنه بساعة أو ساعتين أو أربع ساعات، أو أقل أو أكثر. فإن العراق يسبق الحجاز بنحو نصف ساعة، والحجاز يسبق المغرب بنحو ثلاث ساعات. لكنها تشترك جميعًا فى الليل، فيجب الصوم على أحد هذه البلاد، برؤية البلد الآخر. هذا تحرير محل النزاع، وتحقيق مناط الحكم فيه.

ثم الذى يترتب على رؤية الهلال، وجوب صوم اليوم الذى يلى ليلة الرؤية، وتنسب

(١) أخذ منه التقى السبكى أنه لو حلف شخص صائم: ألا يفطر على طعام حار ولا بارد، فإنه يتحلل بأذان المغرب، من يمينه. وبعضهم قال: يتحلل من يمينه بالفطر على الجماع.

هى إليه. فإذا رؤى الهلال غروب يوم الخميس، وجب على بلد الرؤية، والبلاد التى تشاركه فى الليل، صوم يوم الجمعة، لأن الهلال رؤى فى ليلته. ولا يجب صوم يوم الخميس، ولا الإمساك عن الطعام فيه، لأن الهلال إنما رؤى بعد انتهائه. ولم يقل أحد من علماء الدين ولا الفلك: يجب الإمساك عصر يوم الخميس بالمغرب، لرؤية الهلال ليلة الجمعة بالمشرق! لم يقل هذا أحد، قبل صاحب الإشكال.

ودعواه: أن برؤية الهلال فى المشرق، يصير اليوم فى المغرب معدوداً من أيام رمضان، تخريف ما بعده تخريف. لأن يوم الخميس انتهى فى المشرق ولم ير فيه هلال، ثم بعد انتهائه ودخول ليلة الجمعة، رؤى الهلال. فكيف ينسحب حكم ليلة الجمعة فى المشرق، على يوم الخميس فى المغرب؟!! فنجعله من رمضان!! مع أن المشرق الذى وقعت فيه الرؤية، لا يصوم إلا يوم الجمعة!! وهل يعقل أن يسبق المغرب المشرق بالصوم؟؟ مع أن المشرق هو السابق بالزمان وبالرؤية؟!! ما هذا التخليط والتخريف؟!! بل ما هذا المحال؟ يا صاحب الإشكال!! أيكون كل من المغرب والمشرق سابقًا مسبوقًا فى آن؟!! ألم تعلم أن هذا دور؟ وأن الدور محال فى قضايا العقول؟ كما هو مقرر فى علمى الكلام والأصول؟!! فإشكالك الذى أفضى إلى هذا المحال العقلى، باطل عقلاً.

ويبطله من الناحية الشرعية أيضًا: أنه لو فرض ظهور الهلال فى الحجاز عصر يوم الخميس، لم يجب الإمساك على الحجازيين، ولا على المغاربة بطريق الأولى. لأن المقرر عند علماء الفقه: أن ظهور الهلال نهاراً، يعمل به فى الليلة المقبلة. قال الشيخ خليل فى المختصر: ورؤيته نهاراً للقابلة. وفى حاشية الصفتى على العشماوية -أثناء كلام- ما نصه: لأن العلماء نصوا على أنه إذا ظهر الهلال نهاراً، كان لليلة المقبلة، سواء رآه قبل الزوال أو بعده. ويستمرون على الفطر إن كان آخر شعبان، وعلى الصوم إن كان آخر رمضان. انتهى.

فإذا كان ظهور الهلال نهار يوم الخميس، لا يوجب إمساك بقية اليوم، لأن الهلال يعتبر فلكيًا، هلال ليلة الجمعة. فكيف يدعى صاحب الإشكال وجوب الإمساك عصر يوم الخميس، برؤية الهلال فى ليلة الجمعة؟ وعلى أى شىء استند فى دعواه؟ ليس معه ما يؤيده، لا نص فقهى، ولا قاعدة فلكية، فليراجع نفسه، وليسلك سبيل الإنصاف، نابذاً سبل التعصب والاعتساف.

وليكن فى إنصافه، وسرعة رجوعه للحق. مثل القاضى الفاضل رحمه الله. فقد قال العلامة القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير، فى كتاب الانتصاف -عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] - ما نصه: وقد ذكر لى الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب رحمه الله: أن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب رحمه الله، كان يعتقد أن الواو فى الآية، هى التى سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية، لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة. فكان الفاضل يتبجج باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة: أحدها التى فى الصفة الثامنة من قوله ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] عند قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢].

والثانية فى قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

والثالثة فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

قال الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب: ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه، إلى أن ذكره يومًا بحضرة أبى الجود النحوى المقرى، فبين له أنه واهم فى عدها من ذلك القبيل. وأحال البيان على المعنى الذى ذكره الزمخشرى، من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا. لامتناع اجتماع الصفتين فى موصوف واحد. وواو الثمانية - إن ثبتت - فإنما ترد بحيث لا حاجة[1] إليها، إلا للإشعار بتمام نهاية العدد الذى هو السبعة.

فانصفه الفاضل رحمه الله، وقال: أرشدتنا أباالجود. فلينصف صاحب الإشكال من نفسه، فإن الإنصاف شيمة العلماء، وسيزيده إنصافه رفعة عند الله، ومكانة عند الناس.

لا يجوز وصف النبى بالثائر

درج كثير من الكتاب فى محاضراتهم ورسائلهم، على وصف النبى ﷺ بأنه الثائر الأول. وقد وجه إلى الأستاذ الكبير أبو الخير نجيب، سؤالاً فى هذا الموضوع، قال فيه: هل يصح أن يوصف الرسول ﷺ بأنه كان ثائرًا؟ وأن الإسلام ثورة؟

وكلمة الثائر تفيد معنى الانفجار والطيش والهيجان، فيحرم إطلاقها على النبى ﷺ، ولو فرضنا أن لها معنى صحيحًا.

أولاً: أن العلماء نصوا على أن من وصف النبى ﷺ، بغير صفته كأن قال هو أسود،

---

(١) وتسمى صلة أى زائدة.

فإنه يكفر. لأن وصفه بغير صفته، يقتضى التكذيب بوجوده. وبيان ذلك: أنك إذا قلت: رأيت زيداً من الناس، فسألك من يعرفه بقوله: صفه لى. فقلت: هو أسود، والواقع أنه أبيض. أو قلت: هو قصير، والواقع أنه طويل. فإنه يقول لك على الفور: ليس هو زيداً فنفى ذات الشخص، لانتفاء صفته. فالذى يقول: كان محمد ﷺ أسود، أو ثائراً. يتضمن كلامه نفى وجوده عليه الصلاة والسلام. لأن محمداً النبى المعروف كان غير أسود، وغير ثائر.

ثانياً: أن نسبة وصف إلى النبى ﷺ، كنسبة حديث إليه. فكما يجب التثبت فى نسبة الحديث، بحيث لا يقال: قال النبى ﷺ كذا، إلا إذا كان ذلك الحديث صحيحاً بالطرق المعروفة عند المحدثين.

كذلك يجب التثبت فيما ينسب إليه من صفات، فلا تنسب إليه صفة إلا إذا ثبت اتصافه بها. ولو نسب شخص إلى النبى ﷺ حديثًا أو صفة، وهو غير واثق بصحتها، كان كاذبًا عليه ﷺ، يتبوأ مقعده فى جهنم نسأل الله العافية. ولا شك أن الذى يصف النبى ﷺ بأنه ثائر، لا يجد ذلك الوصف فى شىء من كتب السيرة النبوية، والشمائل المحمدية. لا باللفظ، ولا بالمعنى، فهو لا محالة كاذب.

ثالثًا: أن الإسلام كمل واستقر، فى مدى ثلاث وعشرين سنة، مكث النبى ﷺ منها ثلاث عشرة سنة، يدعو إلى التوحيد بمكة، وفرضت الصلاة ليلة الإسراء. فلما هاجر إلى المدينة، فرض الصوم والزكاة فى السنة الثانية من الهجرة، ثم فرض الحج فى السنة السابعة، وحرمت الخمر بعد الهجرة على ثلاث مراحل. وهكذا توالت فرائض الإسلام وأوامره ونواهيه، متدرجة بالترتيب. حتى أنزل الله تعالى فى حجة الوداع ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣] فلا يجوز أن يقال: الإسلام دين الثورة، لأنه يخالفها بطبيعة تكوينه، وبأوامره التى تحض على التأنى والتريث، ومعالجة ما يشكل من الأمور بالحكمة وبنواهيه التى تذم العجلة، وسرعة الإندفاع.

لا يقال: الله محبة

غنت أم كلثوم أغنية، جاء فيها جملة: الله محبة، فاندفع الشعب يكرر هذه الجملة بين حين وحين. وتحملت أم كلثوم وزر إشاعتها، وترديد الشعب لها. لأنها حرام، فى

حكم الشرع. بل تكون كفراً لمن فهم معناها، وأطلقها مع ذلك على الله تعالى. وبيان تحريمها من وجوه:

الأول: أن هذه الكلمة، مأخوذة عن النصارى. فهم الذين لهجوا بها، وجعلوها شعارهم، ووضعوها على مكاتبهم، فلا يجوز لنا معشر المسلمين أن نستعملها. لأنهم لا يتحرزون عن وصف الله بما لا يليق به. فقد وصفوه بأنه أحد الأقانيم الثلاثة، ومنهم من وصفه بأبوته لعيسى، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً. فكل وصف انفردوا هم أو اليهود، بإطلاقه على الله تعالى، يحرم علينا أن نقلدهم فيه، وأن نستعمله كما استعملوه(١).

الثاني: أن المحبة مخلوقة لله تعالى، والخالق غير المخلوق بالضرورة، كما أن الصنعة غير الصانع. وإذا كان لا يصح فى اللغة والعرف، تسمية الصانع باسم صنعته، فلا يسمى النجار بابا، ولا المهندس قنطرة، لأن الباب والقنطرة مصنوعان للنجار والمهندس. فكذلك لا يجوز ولا يصح أن يسمى الله محبة، لأنها من جملة مخلوقاته التى أوجدتها قدرته سبحانه.

الثالث: أن المحبة فى اللغة: ميل القلب إلى الشىء، فمحبة المرأة ميل قلب الرجل إليها لجمالها. ومحبة المال ميل القلب لجمعه. ومحبة الخير ميل القلب لفعله. فالمحبة معنى قائم بقلب الإنسان أو الحيوان. فإذا قيل: الله محبة، فمعناه أن الله تعالى معنى وعرض قائم بقلب كل إنسان وحيوان. وهذا المعنى إذا قصده الشخص، كان كافراً بإجماع المسلمين. لأن الله ليس بجسم ولا عرض، بل هو ذات منزه عن صفات المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الرابع: أن المحبة —مع كونها معنى كما تقدم— تتعلق بالأشياء التى يبغضها الله. فمن الناس من يحب الكفر، ومنهم من يحب القتل، ومنهم من يحب الزنا ومنهم من يحب الخمر، الخ الخ.

فإذا قلت: الله محبة، فقد وصفته بأنه محبة الكفر والقتل والزنا. الخ الخ وهذا كفر، لا شك فيه.

فإن قيل: بل المراد: الله محبة الناس بعضهم لبعض، أو محبة الخير للناس.

قلنا: هذا التقدير — مع ركاكته — لا يفيد ولا ينفع. لأن اللفظ مطلق، يصدق بكل

(١) من ذلك وصف الله بالأب فى قولهم: أبانا الذى فى السماء، فلا يجوز إطلاقه على الله حقيقة ولا مجازاً.

محبة. وتقييده بما ذكر، لا يجدى. لأنه لا دليل عليه. ومن القواعد المقررة: أن المراد، لا يدفع الإيراد.

الخامس: أن تلك الكلمة تفيد انحصار معنى الله فى المحبة، وهو كذب ومخالفة للواقع. لأن الله تعالى يبغض الكفار، ويبغض المنافقين، ويبغض الفاسقين، ويبغض الظالمين، ويبغض القتلة، ويبغض المتكبرين. والأشياء التى يبغضها الله، أكثر من الأشياء التى يحبها الله، لأن أهل الكفر والفسوق والعصيان، أكثر من أهل الطاعة والإيمان. بدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٣] ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام: ١١٦] ومن المحرم قطعًا: أن يوصف الله بصفة تكون كذبًا، كتلك الكلمة الآثمة.

السادس: أن العلماء قرروا أنه لا يجوز وصف الله بصفة إلا إذا جاءت فى القرآن الكريم، أو فى الحديث الصحيح. وتلك الكلمة لم تأت فى آية قرآنية، ولا فى حديث نبوى. بل هى مأخوذة عن النصارى كما قدمنا، فلا يجوز وصف الله بها جزمًا.

السابع: أن وصف الله بتلك الكلمة، إلحاد فى أسمائه. وقد توعد الله الملحدين فى أسمائه، بقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠] والإلحاد فى أسماء الله: تسميته بما لم يسم به نفسه، مما لا يليق بكماله. قال الزمخشرى: «كما سمعنا أهل البدو لجهلهم يقولون: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا نخوى». انتهى.

وكلمة: الله محبة مثل ما حكاه عن أهل البدو، بل هى أقبح. لأنها تفيد أن الله عرض قائم بغيره، كما قدمنا.

الثامن: أن العلماء صرحوا بأنه إذا كان للكلمة معنيان: معنى سليم، ومعنى فيه إيهام نقص بالنسبة لله تعالى. لا يجوز إطلاقها عليه بالمعنى السليم، منعًا لإيهام النقص فى حقه سبحانه.

ومثلوا لذلك بالعلم الضرورى. فإن له معنيين:

أحدهما: ما لا يتوقف على نظر واستدلال، وعلم الله وإن كان كذلك، لا يطلق عليه ضرورى. منعا للإيهام الذى يفيده.

المعنى الآخر، وهو: ما يلجأ صاحبه إليه، ولا يمكنه دفعه. والله تعالى منزه عن ذلك، لا يلجئه شيء إلى شيء. وإنما يقال: علم الله حضورى بمعنى أن معلوماته كلها حاضرة، لا يغيب عنه منها شيء. وتلك الكلمة الآثمة -لو أمكن تصحيح معناها بتقدير مضاف، بأن يقال: الله ذو محبة - فإنه لا يجوز إطلاقها فى حقه سبحانه، لمعانيها القبيحة التى سبق بيانها.

لا يقال: اسع يا عبدى وأنا أسعى معك

يتردد كثيراً على ألسنة المصريين تلك العبارة. يقولونها فى معرض النصيحة، للشخص الذى يكون متكاسلاً عن السعى فى طلب المعيشة، ويسوقونها مساق آية، أو حديث قدسى. حيث يقولون: ربنا قال: اسع يا عبدى وأنا أسعى معك. والسعى فى طلب المعيشة ليقوت الشخص نفسه أو أهله، واجب لا شك فيه، حض عليه القرآن والسنة. لكن الاستدلال بتلك الجملة، لا يجوز لوجهين:

أحدهما: أنها ليست بآية من القرآن الكريم، ولا جملة من حديث قدسى، فنسبتها إلى الله كذب عليه. وهو كبيرة، بل يصل إلى الكفر.

والآخر: أن نسبة السعى إلى الله لا يقره الدين. لأن معنى السنعى: حركة الشخص فى تجارته، أو صناعته، أو زراعته، طلبًا للرزق. والله تعالى منزه عن السعى، لا يوصف بحركة، ولا سكون. لا ستحالتهما فى حقه سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

فصواب العبارة أن يقال: اسع يا عبدى وأنا أوفقك، أو أيسر لك الأسباب. كما تقول الحكمة الصوفية: إذا أراد الله أمرًا يسر أسبابه. فإن قيل: المراد بأسعى معك: أوفقك على سبيل المجاز كما ثبت فى الحديث القدسى «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها» أى كنت موفقًا له فى هذه الأعضاء، أو حافظًا لها، فلا يرتكب بها معصية. فالجواب: أن المجاز فى هذا الحديث واضح، لا يخفى على عامة الناس، وله مثقفيهم. فإن أحداً، لا يخطر بباله أن يكون الله يد شخص أو عينه مثلاً. بخلاف السعى فى تلك الجملة، فإن كثيراً من الناس يجوِّز فى حق الله أن يتحرك ويسكن، ولا يدرك أن ذلك محال لأنه من لوازم الجسمية، والله ليس

بجسم. ولو سلمنا أنه مجاز واضح، بقى الوجه الأول واردًا، وهو كذب تلك الجملة، لأن الله لم يقلها، وهو كاف فى تحريم نسبتها إليه.

نكت فى فهم آيات

قال الله تعالى: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [آل عمران: ٢٧] إيلاج الليل فى النهار، يكون بأخذ جزء من النهار وضمه إلى الليل، وإيلاج النهار فى الليل، يكون بأخذ جزء من الليل وضمه إلى النهار. ولما كان الإيلاج فيه افناء جزء من الليل فى النهار وبالعكس، ذكر معه فى سياقه، إخراج الحى من الميت، واخراج الميت من الحى، لتناسب بينهما بالتضاد. لأن فى الأول إدخال شيء فى شيء، وفى الثانى اخراج شيء من شيء.

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١] ذكرت هذه الآية، دليلاً على قدرة الله، على نصرة المبغى عليه المظلوم. لأن من قدر على إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، وهما يغشيان الدنيا. قادر على أن يأتى بالليل أو النهار الذى ينصر فيه المظلوم على ظالمه، ويأخذ له حقه منه. وختمت بصفتى السمع والبصر، إشارة إلى أنه يسمع استغاثة المظلوم، ويبصر فعل الظالم.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩] ذكرت الآية، دليلاً على قرب البعث المذكور فى الآية السابقة ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨] والمعنى: ألم تر أن الله يدخل الليل فى النهار، فيصير النهار قصيرًا والليل طويلاً. ويدخل النهار فى الليل، فيصير النهار طويلاً والليل قصيرًا. فينهى آجالكم بتعاقبهما عليكم. وسخر الشمس والقمر لمصلحتكم. كل من الليل والنهار والشمس والقمر، يجرى إلى أجل مسمى عند الله، وهو فناء الدنيا وانتهاء الحياة فيها، حيث يبعثكم للحساب والجزاء. وختمت بجملة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩] لبيان أن الأعمال لا تخفى عليه، كما قال فى سورة الحاقة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

وقال سبحانه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى

اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥] ذكر التكوير فى هذه الآية، إشارة إلى سرعة مرور الوقت . كما قال فى الآية الأخرى ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] وإشارة إلى كروية الأرض التى يلفها الليل والنهار .

ولما كان السياق هنا فى الرد على المشركين، وإثبات وحدانية الله وتفرده بخلق السموات والأرض، ختمت الآية بصفتى العزيز الغفار، لبيان أنه مع تفرده بالعزة والقوة، يمهل المشركين فلا يعاجلهم بالعقوبة، وإذا رجعوا إلى التوحيد والإيمان، غفر لهم .

سؤال وجوابه

سئلت : لم اختصت مريم وولدها عيسى عليهما السلام، بأن الشيطان لم يمسهما عند ولادتهما؟

والجواب : ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان عند ولادته فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطن فى الحجاب » والحكمة فى ذلك : أن مريم نذرتها أمها لله تعالى وهى لا تزال فى بطنها﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] فلم يكن الشيطان ليقدر على مسها، وهى منذورة لله تعالى . لا سيما وقد قال : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] فكيف يتعرض الشيطان لمن تقبلها الله؟ وأما عيسى عليه السلام، فلم يمسه الشيطان، لأن جدّته قال عن والدته مريم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] فكانت استعاذتها حجابًا له، عند ولادته .

فإن قيل : لم يمس الشيطان المولود حين ولادته؟

قلنا : لما امتنع من السجود لآدم عليه السلام، ولعنه الله على ذلك وطرده من رحمته . سأل النظرة إلى آخر الدنيا ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾[الإسراء : ٦٢، ٦٣] ومعنى لأحتنكن ذريته : لأستولين عليهم . فكان مسه للمولود، علامة على تمكنه منه، واستيلائه عليه . وهذا كما يتبارز شخصان بسيف، فيضرب أقواهما مبارزه بصفح

تعصب مذموم

التمسك بالحق، وعدم التهاون فيه، والدفاع عنه. من الخصال الحميدة التى تخلق بها الأنبياء، واقتدى بهم فيها عظماء الرجال فجاهدوا فى سبيل نصرة الدين، ونشر لواء العدل، وبذلوا النفس والنفيس، لإقامة الحق ودعم قواعده وأسسه.

أما التمسك بالباطل، أو ادعاء ما لا دليل عليه، أو رفع شخص مثلاً فوق رتبته، فهو التعصب المذموم الذى يأثم صاحبه ويعاقب. فمن التمسك بالحق، والثبات عليه: قول النبى ﷺ لعمه أبى طالب لما طلب منه أن يهادن قريشًا، ويخفف عنهم وطأة الدعوة «أى عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ومنه: قول أبى بكر لعمر -رضى الله عنهما- لما راجعه فى قتال مانعى الزكاة، وخوفه مغبة محاربتهم: والله لو منعونى عقالاً كانوا: يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

ومنه: إصرار على -رضى الله عنه- على عزل معاوية عن الشام، أو يبايع له لأنه الخليفة الحق، بإجماع أهل الحل والعقد من الصحابة. ومن ثم أجمع العلماء على أن معاوية، كان باغيًا.

والتعصب - ولا يكون إلا مذمومًا- أنواع:

منه: ادعاء النصارى فى عيسى: أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. والواقع أن عيسى إنما هو رسول أرسله الله إلى بنى إسرائيل، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته. فكفروا به، وحاولوا صلبه. فنجاه الله منهم، ورفعه إليه.

ومنه: قول اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، كما حكى الله عنهم فى القرآن الكريم. فهذه الدعوى سببها الغرور، ورضاهم عن أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿**وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٤].

ومنه: قول النضر بن الحارث عن القرآن الكريم ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا تعصب ممقوت بالغ النهاية فى التمسك بالشرك والضلال.

ومنه: التعصب لقراءة من قراءات القرآن الكريم، مثل ما ذكر السكندرى فى شرح العشماوية: أن قراءة أهل الجنة، بقراءة ورش. وهذه دعوى لا دليل عليها. ولم لا تكون قراءة أهل الجنة بالقراءات المتواترة كلها؟ أو تكون قراءة كل جماعة منهم بالقراءة التى كانوا يقرءون بها فى الدنيا؟ فالمغاربة والجزائريون والبلاد الأفريقية بقراءة ورش. وتونس وليبيا، بقراءة قالون واليمن بقراءة نافع، والسودان بقراءة أبى عمرو، وبقية بلاد الإسلام بقراءة حفص. لو قيل هذا لكان قولاً وجيهًا.

ونظير هذه المسألة سؤال القبر. فقد اشتهر أنه يكون بالسريانية لغة الملائكة(١). حتى قال الحافظ السيوطى فى منظومة التثبيت:

ومن عجيب ما ترى العينان ... أن سؤال القبر بالسريانى
نص عليه شيخنا البلقينى ... ولم أره لغيره بعينى

وسئل عنه الحافظ بن حجر، فقال: لم يرد فى ذلك حديث، واستظهر أن يكون السؤال بالعربية، لغة النبى ﷺ قال: ويحتمل أن يكون سؤال كل واحد بلغته. قلت: وهذا الاحتمال متجه، ولا مانع أن يلهم الله تعالى ملكى السؤال، لغة كل مقبور.

ومنه: التعصب لمذهب من المذاهب الفرعية.

كتعصب بعض الحنفية(٢) لأبى حنيفة ومذهبه. حتى زعم أن عيسى والمهدى يقلدانه ويكونان على مذهبه!! قال العلامة البرزنجى فى الإشاعة: «ومن العجائب أنه وقع للقهستانى -مع فضله وجلالته- شىء من ذلك، فقال فى شرح خطبة النقابة: إن عيسى إذا نزل عمل بمذهب أبى حنيفة، كما ذكره فى الفصول الستة. قال البرزنجى: وليت شعرى ما الفصول الستة؟ وما الدليل على هذا القول؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون» انتهى.

---

(١) يقول الملكان للميت: مرزهو، فيرد عليهما: مرد ازر هو، وقيل غير ذلك، مما لا دليل عليه. وهذه أمور غيبية، لابد فيها من خبر صحيح عن المعصوم، ولا يوجد.

(٢) من التعصب المذهبى: ما ذكره بعض الأصوليين المتأخرين: أن المقلد يتحتم عليه أن يعتقد أن مذهبه صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب، وهذا كلام فاسد، لا معنى له. وهو يؤدى إلى محال، لأن مقتضى اعتقاد كل مقلد، ذلك أن تكون المذاهب الأربعة كلها صوابًا يحتمل الخطأ، وهى فى الوقت نفسه خطأ يحتمل الصواب.

وللعلامة الشيخ على القارى رسالة «المشرب الوردى فى مذهب المهدى» ألفها لرد هذه الدعوى الفاسدة. ذكر فيها: «أن جاهلاً عارضه فى هذه القضية -يعنى تقليد المهدى لأبى حنيفة - ونقل ذلك عن كتاب مجهول. قال: وقد صرح الإمام ابن الهمام بعدم جواز النقل من غير الكتب المتداولة، سواء العلوم الأصلية والفرعية. قال: ثم إن ركاكة ألفاظه ومبانيه، تدل على بطلان معانيه. قال: وها أنا أذكره بلفظه لتحيط به علمًا، حيث قال -ولم يخش ما عليه من الوبال، وغضب الكبير المتعال -: اعلم أن الله قد خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة، ومن كراماته: أن الخضر عليه السلام كان يجىء إليه كل يوم، وقت الصبح. ويتعلم منه أحكام الشريعة، إلى خمس سنين. فلما توفى أبو حنيفة ناجى الخضر ربه. قال: إلهى إن كان لى عندك منزلة، فائذن لأبى حنيفة، حتى يعلمنى من القبر، على حسب عادته. حتى أعلم شرع محمد ﷺ على الكمال، ليحصل لى الطريقة والحقيقة. فنودى: أن اذهب إلى قبره، وتعلم منه ما شئت. فجاء الخضر، وتعلم منه ما شاء كذلك، إلى خمس وعشرين سنة أخرى. حتى أتم الدلائل والأقاويل. ثم ناجى الخضر ربه، وقال: إلهى ماذا أصنع؟ فنودى: أن اذهب إلى صعانك، واشتغل بالعبادة إلى أن يأتيك أمرى إلى أن قال له: اذهب إلى البقعة الفلانية، وعلم فلانًا الشريعة. ففعل الخضر عليه السلام، ما أمر. ثم بعد مدة ظهر فى مدينة ما وراء النهر شاب، وكان اسمه أبا القاسم القشيرى، وكان يخدم أمه ويحترمها. ثم إنه قال - وقتا من الأوقات لأمه -: يا أماه قد حصل لى الحرص على طلب العلم، وقد قال على كرم الله وجهه: من كان فى طلب العلم كانت الجنة فى طلبه. فائذنى لى حتى أذهب إلى بخارَى، وأتعلم العلم. فتفكرت والدته، وقالت: إن لم أعطه الإذن أكون مانعة للخير، وإن أذنت له، لم أصبر على فراقه. فلم يكن لها بد، حتى أذنت له. فودع القشيرى أمه وعزم على السفر مع شاب صاحب له، يطلبان العلم؛ فقعدت أمه على الباب، باكية حزينة. وقالت: إلهى اشهد أنى حرمت على نفسى الطعام والمنزل، ولا أقوم من مقامى، حتى أرى ولدى. فمضى القشيرى وصاحبه، حتى نزلا فى منزل ليأكلا فيه طعامًا. فقام القشيرى ليقضى حاجته، فتلوثت ثيابه ببوله. وقال لصاحبه: اذهب أنت، فإنى أريد أن أرجع إلى المنزل. وأخاف أن تصيب النجاسة جسمى فى المنزل الثانى، وتصيب روحى فى الثالث، فقعودى عند والدتى أولى. ورجع إلى أمه، وكانت قاعدة

على مكانها الذى ودعت ابنها فيه. فقامت وتصافحت مع ولدها، وقالت: الحمد لله. فأمر الله تعالى الخضر: أن اذهب إلى القشيرى، وعلمه ما تعلمت من أبى حنيفة، لأنه أرضى أمه. فجاء الخضر إلى أبى القاسم وقال له: أنت أردت السفر لطلب العلم، وقد تركته لرضا أمك؟ وقد أمرنى الله أن أجيء إليك كل يوم، على الدوام وأعلمك. فكل يوم يجيء إليه الخضر، حتى ثلاث سنين، وعلمه العلوم التى تعلم من أبى حنيفة فى ثلاثين سنة حتى علمه علم الحقائق والدقائق، ودلائل العلم. وصار مشهور دهره، وفريد عصره. حتى صنف ألف كتاب، وصار صاحب كرامات، وكثر مريدوه وتلاميذه. فكان له مريد كبير متدين، لا يفارق الشيخ. فعد له الشيخ ألف كتاب من مصنفاته، ووضعها فى الصندوق. وأعطى لذلك المريد، وقال: قد بدا لى أمر، فاذهب وارم هذا الصندوق فى جيحون. فحمل المريد الصندوق، وخرج من عند الشيخ، وقال فى نفسه: كيف أرمى مصنفات الشيخ فى الماء؟ لكن أذهب وأحفظ الكتب، وأقول للشيخ: رميتها. وحفظ الكتب وجاء، وقال للشيخ: رميت الصندوق فى الماء. قال الشيخ: وما رأيت من العلامات؟ قال: ما رأيت شيئًا. قال الشيخ اذهب وارم الصندوق. وأراد أن يرميه، فلم يهن عليه. ورجع إلى الشيخ، مثل الأول وقال: رميته؟ قال: نعم. قال: وما رأيت؟ قال: لم أر شيئًا. قال الشيخ: ما رميته، فاذهب فارمه. فإن لى فيها سرًا مع الله، ولا ترد أمرى. فذهب المريد ورمى الصندوق. فخرج من الماء يد، وأخذت الصندوق. قال المريد له: من أنت؟ فنادى فى الماء: إنى وكلت أن أحفظ أمانة الشيخ. فرجع المريد، وجاء إلى الشيخ فقال: رميت؟ قال: نعم. قال: وما رأيت؟ قال: رأيت الماء قد انشق، وخرج منه يد وأخذ الصندوق، وقد صرت متحيراً، وما السر فى ذلك؟ قال الشيخ: السر فى ذلك أنه إذا قربت القيامة وخرج الدجال ونزل عيسى ببيت المقدس فيضع الإنجيل بجنبه، ويقول: أين الكتاب المحمدى؟ وقد أمرنى الله أن أحكم بينكم بكتابه، ولا أحكم بالإنجيل. فيطلبون الدنيا، ويطوفون البلاد، فلم يوجد كتاب من كتب الشرع المحمدى، فيتحير عيسى. ويقول: إلهى بماذا أحكم بين عبادك؟ فينزل جبريل ويقول: قد أمر الله أن تذهب إلى نهر جيحون، وتصلى ركعتين بجنبه وتنادى: يا أمين صندوق أبى القاسم القشيرى، سلم إلىّ الصندوق، وأنا عيسى بن مريم، وقد قتلت الدجال. فيذهب عيسى إلى جيحون، ويصلى ركعتين، ويقول مثل ما أمره جبريل. فينشق الماء، ويخرج الصندوق،

ويأخذه ويفتحه، ويجد فيه ختمة وألف كتاب، فيحيى الشرع بذلك الكتاب. ثم سأل عيسى جبريل: بم نال أبو القاسم هذه المرتبة؟ فقال: برضاء والدته». نقل من كتاب أنيس الجلساء اهـ.

قال الشيخ على القارى: «ولا يخفى أن هذا مع ركاكته ولحنه، كلام بعض الملحدين الساعين فى إفساد الدين. إذ حاصله: أن الخضر الذى قال الله تعالى فى حقه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وقد تعلم منه موسى عليه السلام، من جملة تلاميذ أبى حنيفة. ثم عيسى وهو من أولى العزم، يأخذ أحكام الإسلام من تلميذ تلميذ أبى حنيفة! وما أسرع فهم التلميذ، حيث أخذ عن الخضر فى ثلاث سنين، ما تعلمه الخضر من أبى حنيفة حيًا وميتًا فى ثلاثين سنة!! وأعجب منه: أن أبا القاسم القشيرى ليس معدودًا فى طبقات[1] الحنفية!! ثم العجب من الخضر أنه أدرك النبى ﷺ ولم يتعلم منه الإسلام، ولا من علماء الصحابة الكرام، كعلى باب مدينة العلم، وأقضى الصحابة. وزيد أفرضهم، وأبىّ أقرئهم، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام. ولا من عظماء التابعين، كالفقهاء السبعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعطاء بمكة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام. وقد رضى بجهله بالشريعة حتى تعلم مسائلها فى أواخر عمر أبى حنيفة!! فهذا مما لا يخفى بطلانه، حتى على العقول السخيفة حتى أن علماء المذاهب، أخذوا هذه المقالة على وجه السخرية!! وجعلوها دليلاً على قلة الطائفة الحنفية. حيث لم يعلموا أن أحدًا منهم، لم يرض بهذه القضية بالكلية. ثم لو تعرضت لما فى منقوله من الخطأ فى مبانيه ومعانيه الدالة على نقصان معقوله، لصار كتابًا مستقلاً. إلا أنى أعرضت عنه صفحًا، لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فبطل قول القائل، بل وكفر فيما ظهر. لا سيما بالنسبة إلى نبى الله عيسى المجمع على نبوته، سابقًا ولاحقًا. فمن قال بسلب نبوته، كفر حقًا، كما صرح به الإمام السيوطى. فإن النبى لا يذهب عنه وصف النبوة، ولا بعد موته.

وأما حديث: لا وحى بعدى، فباطل لا أصل له. نعم ورد «لا نبى بعدى»[2] ومعناه

(١) بل هو شافعى، وهو صاحب الرسالة القشيرية فى التصوف.

(٢) الواجب أن يقول: صح «لا نبى بعدى» لأنه حديث صحيح جدًا، وطرقه بلغت حد الاستفاضة، ومعناه متواتر.

عند العلماء: أنه لا يحدث بعده نبى، بشرع ينسخ شرعه.

وقد صرح الإمام السبكى، فى تصنيف له: أن عيسى عليه السلام يحكم بشريعة نبينا بالقرآن والسنة. وحينئذ يترجح أن أخذه للسنة، من النبى ﷺ بطريق المشافهة، بغير الواسطة، أو بطريق الوحى والإلهام وقد روى[١] عن أبى هريرة: أنه لما أكثر الحديث، وأنكر عليه الناس قال: لئن نزل عيسى بن مريم قبل أن أموت، لأحدثنه عن رسول الله ﷺ فيصدقنى. فقوله: فيصدقنى، دليل على أن عيسى عليه السلام، عالم بجميع سنة النبى ﷺ، من غير احتياج إلى أن يأخذها عن أحد من هذه الأمة. حتى إن أبا هريرة الذى سمع من النبى ﷺ، احتاج إلى أن يلجأ إليه، ليصدقه فيما رواه ويزكيه. ثم وقفت على سؤال، رفع إلى شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى: هل ينزل عيسى عليه السلام فى آخر الزمان حافظًا للقرآن الكريم، ولسنة نبينا الكريم؟ أو يتلقى الكتاب والسنة من علماء ذلك الزمان؟ فأجاب: لم ينقل فى ذلك شىء صريح، والذى يليق بمقام عيسى عليه السلام: أنه يتلقى ذلك عن رسول الله ﷺ، فيحكم فى أمته، كما تلقاه عنه». لأنه فى الحقيقة خليفة عنه انتهى المقصود من كلام الشيخ على القارى. وقد أبطل أيضًا دعوى تقليد المهدى لمذهب الحنفية، وقرر: أنه يكون مجتهدًا مطلقًا. فارجع إلى الرسالة المذكورة، تجد فيها ما يكفى ويشفى.

ومنه: التعصب بطريق من الطرق الصوفية.

كتعصب الطائفة التيجانية، لطريقتهم وشيخهم تعصبًا غير معقول.

فزعموا أن طريقتهم تغنى عن غيرها، ولا تغنى طريقة أخرى عنها. وأن من ترك طريقتهم إلى طريقة غيرها، يموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى. وهذا غلو ينافى مبدأ التصوف، والصوفية الذين هم أبعد الناس عن الدعوى وحب الظهور. والطرق ليست مقصودة لذاتها، ولكنها مقصودة لتسليك المريد وإيصاله إلى الله تعالى بوسائل الذكر، وتطهير النفس من أدرانها بالرياضة الشرعية. وذلك ممكن بأى طريق من الطرق المعروفة، كالشاذلية والقادرية والرفاعية والأحمدية والخلوتية[٢] والتيجانية والنقشبندية وغيرها.

---

(٣) هذه الصيغة تستعمل فى الخبر الضعيف، وهذا الخبر صحيح عن أبى هريرة. فكان الواجب أن يقول: وقد ثبت، أو صح.

(١) الطريقة التيجانية، فرع من الطريقة الخلوتية.

جاء مرة إلى مولانا الإمام الوالد رضى الله عنه، شخص وزانى الطريقة -وهى فرع من الشاذلية- وطلب منه أن يلقنه عهد الطريقة الصديقية. فذكر له محاسن الطريقة الوزانية، ومناقب شيخها مولاى عبد الله الشريف، جد أشراف وزّان. وأفهمه أن الطريقة الصديقية والوزانية وغيرهما فى الدلالة على الله سواء. فعدل عن طلبه، وانصرف راضيًا بطريقته. وجاء مرة أخرى مريد صديقى من تلاميذه، ومعه شقيق له تيجانى. يريد الانتساب للطريقة الصديقية، مبديا ضجره من طريقته، لما نسب إليها من أشياء، لم يقبلها عقله. فذكر له أن طريقته من جملة الطرق الموصلة إلى الله، وأن الأشياء المنسوبة إليها، بعضها صحيح، وله تأويل يوافق الشرع. وبعضها من زيادات الجهال، أو من سوء تصرفهم وفهمهم. ووضح له ذلك بالأمثلة المتعددة، حتى عدل عن رأيه، وانصرف من عنده محبا لطريقته التى جاء، وهو يريد الخروج منها. وهكذا لم يكن يزوره شخص يريد الانتساب للطريقة الصديقية، وهو منتسب لطريقة أخرى، إلا أمره بالتمسك بطريقته، وحببها إليه، وعرفه أن الطرق كلها توصل إلى الله.

وزعموا أيضًا: أن شيخهم الشيخ أحمد التيجانى، خاتم الأولياء، وأنه لا وَلِىّ بعده يظهر فى الأمة المحمدية. وزعموا أن كلام محيى الدين بن العربى الحاتمى، عن خاتم الأولياء، ينطبق على شيخهم انطباقًا تامًا. فإذا قيل لهم: دعواكم هذه، فيها حجر على فضل الله. أجابوا: كما كان النبى ﷺ خاتم الأنبياء، ولم يكن حجرًا على فضل الله. فكذلك شيخنا هو خاتم الأولياء من غير أن يكون فيه حجر على فضل الله. وهذه دعوى باطلة، وقياس فاسد لوجوه:

أحدها: أن الله تعالى صرح فى القرآن الكريم بأن النبى ﷺ خاتم الأنبياء ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠] وانعقد عليه إجماع المسلمين. ودعواهم فى شيخهم لم تأت فى آية، ولا حديث، ولم يعترف بها أحد من رجال الصوفية.

ثانيها: أن قياس شيخهم على النبى ﷺ سوء أدب منهم، يلزم فيه التعزير، والأدب البالغ، للفوارق البعيدة بينهما. فالنبى ﷺ رسول معصوم ينزل عليه الوحى، ومن أنكره أو أنكر رسالته فهو كافر. بخلاف شيخهم فى ذلك كله، فهو ليس برسول، ولا معصوم. ومن أنكر وجوده أو أنكر ولايته، لا يلزمه نقص فى عقيدته، ولا دينه.

ثالثها: أن النبى ﷺ أرسله الله إلى العالمين، وأنزل عليه القرآن الكريم الذى يشتمل على علوم الأولين والآخرين. ويضم بين دفتيه أتم التشريعات، وأفضل الآداب، وأكمل الأخلاق. فلم يكن لمجيء نبى بعده من فائدة. لأنه ما من تشريع حكيم، ولا خلق كامل، ولا أدب فاضل، إلا وهو مبين فى الكتاب والسنة أتم بيان.

رابعها: أن الله تعالى يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] فإذا كان الله تعالى يصرح بأنه قد أكمل الدين، وأتم نعمته على المسلمين، فلا حاجة بعد هذا إلى نبى ولا رسول.

خامسها: أن الولاية نتيجة حتمية للعمل بمقام الإحسان الذى هو أحد مقامات الدين. فدعوى ختمها بولى معين. تستلزم.

أولاً: الكذب لأنها دعوى لا دليل عليها، وكل ما لا دليل عليه، فهو كذب.

وثانيًا: تعطيل مقام الإحسان وإلغاءه لأن الولاية إذا انقطعت بموت ولى معين، لم يبق فائدة للعمل به.

وثالثًا: التحريض على طرح المجاهدة، وترك السلوك. لأن المريد إنما يسلك الطريق، ويجاهد نفسه بأنواع الرياضة الشرعية، ليصل إلى مقام الولاية، حيث يفيض الله عليه من المعارف والأسرار، ما يناسب حاله. فإذا علم أن الولاية ختمت، وانتهى أمرها. فتر عن المجاهدة، وانقطع عن السلوك.

سادسها: إجماع الصوفية، على أن الإمام المهدى هو خاتم الأولياء. وفى ذلك يقول ابن العربى الحاتمى فى الفتوحات:

ألا إن ختم الأولياء شهيد	وعين إمام العالمين فقيد
هو السيد المهدىّ من آل أحمد	هو الصارم الهندى حين يبيد
هو الشمس يجلو كل غيم وظلمة	هو الوابل الوسمى حين يجود

ومعنى البيت الأول: أن خاتم الأولياء –وهو المهدى– يكون شهيداً: أى حاضراً حين فقد عين –أى ذات– إمام العالمين ﷺ. يشير إلى أن ظهور المهدى يكون فى وقت اندثار السنة النبوية، وفقدان العاملين بها. فيحيها ويدعو إلى العمل بها، ويبطل التقليد،

ويعاديه الفقهاء المقلدون، لإبطاله علمهم الذى يتكسبون به. وفى وقته يظهر الدجال ويحاربه، فينزل عيسى عليه السلام، ويقتله بباب اللد، ثم تتابع أشراط الساعة الكبرى. ويقل المؤمنون، بل ينقرضون. فلا يوجد مؤمن، فضلاً عن ولى. لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، لأن قيامها مظهر غضب الله على أهل الأرض.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة وعلى الأرض أحد يقول: الله الله» فختم الأولياء بالمهدى هو المعقول، وهو المجمع عليه.

ومن تعصب التيجانية: أنهم لا يصلون فى زاوية غير زاويتهم، فلا يصلون فى زاوية الطائفة الدرقاوية، أو القادرية، أو العيساوية، أو الحمدوشية، أو الصادقية، مع أن هؤلاء يصلون فى زاوية التيجانيين، لا يرون فى ذلك حرجًا ولا منعًا. لأنهم يعتقدون أن الطريقة التيجانية، من جملة الطرق الصوفية.

ولما كنت أطلب العلم بفاس سنة ١٣٤٦ هـ أردت أن أكلم العلامة مولاى عبد السلام العلوى – وهو تيجانى الطريقة – ليدرس لنا شرح السعد على التلخيص، فى علوم البلاغة. وكان يدرس شرح المختصر للخرشى، بجامع القرويين، لكنه لا يصلى فيه الظهر. فسألت: أين أجده؟ فقيل لى: إنه لابد أن يصلى الظهر فى الزاوية التيجانية، وذهبت إليها وقابلته هناك. فعجبت كيف يدع الصلاة فى جامع القرويين، وهو أقدم جامع فى الشمال الأفريقى؛ بل هو أقدم من الجامع الأزهر، وحضر فيه كبار العلماء والأولياء، مثل أبى الحسن الشاذلى وابن العربى الحاتمى وابن خلدون وابن غازى. وزروق والونشريسى وغيرهم كثير. وفيه أماكن، رؤى فيها النبى ﷺ، كما أخبر بذلك بعض الصالحين. منها مكان اسمه: العنزة، كنا نقرأ فيه شرح الدردير لمختصر خليل على الفقيه العلامة القاضى عبد الرحمن بن القرشى رحمه الله، ثم يذهب للصلاة فى الزاوية التيجانية الحادثة البناء، لم يمض على تأسيسها مائتا سنة، منذ دفن فيها الشيخ أحمد التيجانى سنة ١٢٥٠ هـ. وليس لها[١] ماض فى نشر العلم ودراسته. وهكذا فى سائر بلاد المغرب، تجد طوائف

(١) لكن لا عجب فى ذلك على أصلهم. فإنهم يعتقدون أن شيخهم أفضل الناس بعد الصحابة، لا يفضله تابعى ولا إمام ولا غير ذلك. فهو أفضل من أويس القرنى، سيد التابعين، كما صح فى الحديث. وأفضل من الأئمة الأربعة، ومن على زين العابدين وآل البيت النبوى جميعًا، ما عدا الحسن والحسين، لأنهما صحابيان، وأفضل من الجنيد وشيوخه وأصحابه، ومن جميع الأقطاب جملة وتفصيلاً. والمكان الذى يحل فيه، تغمره البركة، بحيث لا يضيره ألا يحضر فيه عالم ولا ولى. لأن الشيخ أحمد التيجانى يغنى عن جميع الأولياء، وهم مجتمعون لا يغنون عنه. فمن هنا يفضلون الصلاة فى زاوية شيخهم، على الصلاة فى جامع القرويين.

الصوفية على اختلاف طرقهم، يصلون فى الزاوية التيجانية، كما يصلون فى سائر المساجد. لكنك لا تجد تيجانيا يصلى فى زاوية غير زاويته. وأغرب من هذا أن ضريح مولاى إدريس بفاس، مبنى عليه جامع كبير، تقام فيه الجمعة والصلوات الخمس، ويقصده المغاربة من كل حدب وصوب، مثل سيدنا الحسين بالقاهرة. لكن لا يزوره تيجانى أبداً، ولا يصلى فيه(١).

التداوى بالعسل

سألنى الأستاذ الشيخ أحمد مرسى عن بيان معنى حديث العسل؟

والجواب: روى الشيخان من طريق أبى المتوكل عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إن أخى يشتكى بطنه، وفى رواية: استطلق بطنه. فقال «اسقه عسلاً» فذهب، ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئًا. وفى لفظ: فلم يزده إلا استطلاقا - مرتين أو ثلاثا - كل ذلك يقول «اسقه عسلا» فقال له فى الثالثة، أو الرابعة «صدق الله وكذب بطن أخيك».

كان استطلاق بطن الرجل، بسبب تخمة أصابته عن امتلاء. فأمره النبى ﷺ بشرب العسل، لدفع الفضول المجتمعة فى نواحى المعدة والأمعاء. لكن الرجل سقى أخاه من العسل مقداراً لا يفى بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض. فلما رجع إلى النبى ﷺ، أمره بمعاودة سقيه العسل مرة ثانية وثالثة، حتى وصل للمقدار الذى يقاوم الداء، فبرأ بإذن الله تعالى.

ولا شك أن اعتبار مقادير الأدوية وكيفياتها، ومقدار قوة المرض والمريض، من أهم قواعد الطب.

---

(١) لأن شيخهم نهاهم عن زيارة أى شيخ كان، غير الصحابة. وحدثنى ثقة أن العلامة الشيخ أحمد البنانى الشهير بكلاّ، مر بمصر فى طريقه إلى الحج، ورغب فى زيارة ضريح الإمام الشافعى، وبعد الزيارة، علم أن الشيخ التيجانى نهى عن زيارة الأولياء. وهو تيجانى - فرجع من الطريق إلى الضريح، وقال يخاطب الإمام الشافعى: يا إمام زيارتك رد عليك، قالها ثلاثًا وانصرف. فإن صحت فهى تدل على تعصب شديد، مع غباوة أشد. وقد يؤيد صحتها أن التيجانيين بالمغرب، لا يزورون وليا من الأولياء، ولا يحضرون المواسم التى تقام لهم. مثل موسم مولاى إدريس الأكبر، بمدينة زرهون، وموسم مولاى عبد السلام بن مشيش، ببنى عروس، وموسم مولاى العربى الدرقاوى، ببنى رزوال. وموسم سيدى محمد بن عيسى، بمكناس. فالتيجانيون بالمغرب، هم وهابية الطرق الصوفية. أما التيجانيون بالمشرق، فينكرون هذه الأشياء، ويتظاهرون بزيارة بعض الأولياء، على سبيل التقية.

وقوله ﷺ «صدق الله» فى إخباره بأن العسل فيه شفاء، فهو دواء نافع. ولكن «كذب بطن أخيك» أى كثرت فيه المادة الفاسدة فلم ينتفع بما أخذه من العسل. فلما سقاه مرة أخيرة، وبلغ المقدار الذى قاوم فساد بطنه، صح وبرأ. وهذا كما يكون بالشخص مرض شديد، ويأخذ مقداراً من الدواء، لا يكفى لدفعه. فلا يكون بقاء المرض، لعدم نفع الدواء، بل لعدم أخذ المقدار الكافى منه.

قال ابن القيم: وليس طبه ﷺ، كطب الأطباء. فإن طب النبى ﷺ متيقن قطعى إلهى صادر عن الوحى، ومشكاة النبوة وكمال العقل. وطب غيره، أكثره حدسى وظنون وتجارب. ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى، بطب النبوة. فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقى بالإيمان والإذعان. فهذا القرآن الذى هو شفاء لما فى الصدور، إن لم يتلق هذا التلقى، لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسا إلى رجسهم، ومرضا إلى مرضهم. وأين يقع طب الأبدان منه؟ فطب النبوة، لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذى هو الشفاء النافع. وليس ذلك لقصور فى الدواء، ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله اهـ.

وذكر للعسل فوائد كثيرة فراجعها فى كتاب زاد المعاد[1]. وللدكتور أحمد لطفى

---

(١) جاء فى جريدة الأهرام يوم ٢ / ١١ سنة ١٩٦٨ – تحت عنوان:

تجارب على عسل النحل، شفاء أمراض مختلفة به. اسطنبول فى ٢: – أجرى طبيب تركى من أساتذة الجامعات، سلسلة من التجارب عالج فيها ١٩٧ مريضاً مصابين بأمراض مختلفة. وكانت النتيجة التى خلص إليها هى أن الدواء الذى يحتاج إليه بعض هؤلاء، ليس سوى عسل النحل. وقد عمل هذا الطبيب على أساس أن عسل النحل، غنى بالفسفور والكالسيوم والحديد والفيتامين، وذكر ١٧ حالة أمكن علاجها بالعسل. وطريقته لعلاج آلام الظهر على سبيل المثال، هى خلط ١٠٠ جرام من عسل النحل السائل بدهن من الضأن، ودعك الخصر به. وبهذه الطريقة يزول الألم بعد ثلاثة أيام. أما فى حالة قرحة المعدة، فعلى المريض أن يأكل من عسل النحل ٤ كيلو جرامات أسبوعياً، لمدة شهر، وبذلك تزول القرحة.

وفى جريدة الأهرام أيضاً يوم الأربعاء ١٢ / ١١ / ١٩٦٨ تحت عنوان:

عسل النحل يستعمل كغذاء لمرضى السكر فى الاتحاد السوفيتى.

لم يكن الطبيب التركى أستاذ الجامعة الذى عالج ١٩٧ مريضاً بعسل النحل وحده، إلا استمراراً لخط أساسى هام، موجود فى الاتحاد السوفيتى منذ سنوات طويلة، ولا يزال آخذاً فى ازدياد. وهو استخدام عسل النحل، كمادة علاجية لكثير من الأمراض، وخصوصاً أمراض الجهاز التنفسى، وأمراض القلب، وتصلب الشرايين. ويستعمل العسل من الظاهر، كعلاج لبعض أنواع الروماتيزم وعدد من الأمراض الجلدية. وفى الاتحاد السوفيتى، معهد لأبحاث عسل النحل. وله فروع فى جمهورياته المختلفة. وبلغ =

عبد السلام كتاب «نحل العسل» أثبت فيه علاج أمراض الكبد والمعدة والحموضة والسكر والأمراض العصبية وغيرها بالعسل، وهو مطبوع. ولأبى العباس أحمد بن إبراهيم بن سمكة القمى، كتاب العسل، استوفى فيه ما جاء فى ذكر العسل وصفته، وما قيل فى النحل.

حكم الصلاة فى القمر

جاءنى خطابى من أخى العلامة السيد حسن بن الصديق حفظه الله، يقول فيه:

= من التقدم فى استعمال عسل النحل كعلاج، أنهم بدأوا فى استعماله كغذاء لمرض السكر، ونجحت هذه الطريقة، بعد اتباع نظام خاص يسمح بكميات العسل أن تهضم بغير أن تضيف رصيد إلى نسبة السكر فى الدم وفى البول. وعقد فى الاتحاد السوفيتى مؤتمر دولى، لمناقشة مشروعات استخدام العسل الأبيض فى العلاج. ونشرت عشرات التقارير الطبية، والدراسات المدعمة بالأرقام، عن نتائج استعمال العسل فى علاج الربو وأمراض البرد وفقر الدم والروماتيزم واضطرابات المعدة وأمراض الكبدة ولأن تركيب عسل النحل، يختلف بعض الشىء حسب نوعية الغذاء الذى يعيش عليه النحل، فإن الدراسات العامة التى أجريت فى الاتحاد السوفيتى، عن علاقة عسل النحل، بنوعية غذاء النحل، فتحت الطريق للحصول على أنواع من العسل تناسب الاستعمالات المختلفة. ويقومون بتعبئتها بطرق خاصة، كالأدوية تمامًا، ويكتب عليها التركيب الخاص بها واستعمالاته. وبدأ الاتحاد السوفيتى يصدر هذه الأنواع من العسل إلى دول أوربا وأمريكا، ومن أكثر دول أوربا استيراداً لهذه الأنواع. اليونان، ولو أنه لا توجد الطرق العملية لتقييمه، كما فى الاتحاد السوفيتى. وقد نشر الاتحاد السوفيتى عدة كتب عن استعمالات العسل، فى العلاج الطبى. وترجمت إلى أكثر لغات العالم، وتعتبر الآن مراجع فى العلاج بالعسل. وتركيب العسل يتراوح بين ٤١٪ سكر فواكه، ٣٤٪ سكر عنب، ٨,١٪ دكسترين، ٩,١٪ سكروز، ٣ر٪ بروتين، ٤ر٪ فتروجين بالإضافة إلى عناصر الحديد والكالسيوم والصوديوم والمغنسيوم والبوتاسيوم والفسفور ومواد عطرية. وهذا غير حبوب اللقاح التى تعتبر أساسية من أساسيات أهمية عسل النحل، وخصوصًا لتقوية النشاط العام. وهذا غير بعض مكونات العسل الخاصة التى توجد فى غذاء ملكات النحل، داخل الخلية ذات التركيب الخاص، والذى يقطع الذين جربوه بأنه أحسن هرمون طبيعى للنشاط. وقد أعلن الدكتور ألفريد أستاذ التغذية ببريطانيا أن العسل يحتوى على منجنيز ونحاس وحديد، كما وجد فى بعض أنواعه التى تعيش فى مزارع قرب مشارف مناطق التعدين. وأن هذه العناصر، تدخل فى تكوين الهيكل العظمى للإنسان. ولهذا فإن هذا النوع من العسل، ولو أنه يبدو فاتحًا بالنسبة لأنواع العسل الشفاف، إلا أنه أكثر فاعلية لعلاج أمراض الصدر، وفقر الدم. وفى بريطانيا مركز دولى لأبحاث النحل، فى كوين آبكنجهام شاير. يضم اتحاد المشتغلين بأبحاث النحل من ٩٠ دولة. وترأسه الدكتورة ايفاكرين، ويضم الأبحاث الخاصة بالنحل، وبعسل النحل، بسبعة وأربعين لغة. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ [النحل: ٦٩] وهذا مما يؤكد إعجاز القرآن العلمى.

سيدى علمتم نبأ وصول الإنسان إلى القمر، فماذا عسى يكون حكم الصلاة عليه؟ وفى الطريق إليه بالنسبة لاستقبال القبلة؟ ولأوقات الصلاة إن كانت تختلف عن الأرض؟ وكذلك بالنسبة للصيام؟ لو فرضنا أن الإنسان استطاع المكث فيه أو فى غيره من الكواكب الأخرى التى يمكن العيش فيها، بسبب وجود الهواء فيها كالمريخ مثلا؟ إذ من المعلوم أن الصيام مرتبط بظهور الهلال، وقد أصبح الإنسان على ظهره، أو على كوكب آخر، لا علاقة للقمر به، أرجو الإفادة مشكورين.

والجواب: هذه أسئلة بكر تتعلق بموضوع، لم يسبق له وجود قبل اليوم، منذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة. إذا استثنينا النبى ﷺ. فإنه عرج إلى السموات العلى، حتى وصل إلى أوربا سدرة المنتهى، وإلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، لكنه لم يذهب إلى القمر، وإن تجاوزه بمسافات بعيدة. لأن عروجه كان للتكريم، ومشاهدة آيات الخالق العظيم. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٨] ومجرد الوصول إلى القمر، لا تكريم فيه. لأن أرضه جرداء، لا نبات فيها ولا كائنات حية، ولا يمكن الإقامة عليها، حسبما أثبتته التحاليل التى أجريت على تربته وصخوره. فإن تغيرت تلك التحاليل، وفرض إمكان سكناه فى المستقبل القريب أو البعيد. فإن حكم الصلاة والصيام لساكينه، ينبنى على مقدمة، يتبين بعد تقريرها الجواب، والله الموفق للصواب:

لا شك أن الله سخر الشمس والقمر والكواكب لأهل الأرض، كما جاء فى عدة آيات ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إراهيم: ٣٣] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [النحل: ١٢] ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦] ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢، ٣٣] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وكذلك خطاب التكليف موجه إلى أهل الأرض ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧] ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] إلى غير ذلك من آيات الأحكام التى تفيد ذلك المعنى، وهو توجيه التكليف إلى أهل الأرض، على سبيل الأصالة.

فإن ذهب جماعة منهم إلى القمر وسكنوه، كانوا فى شروط التكليف تابعين لأهل الأرض.

وبيان ذلك: أن اليوم فى القمر طويل، يعادل أربعة عشر يومًا. فالمقيمون فيه، لا يصلون صلاة يوم واحد، بل يقدرون له. فيصلون صلاة أربعة عشر يومًا بزمن أهل الأرض. ومن جهة استقبالهم فى الصلاة، فإن العلماء(١): قرروا أن الكعبة قبلة، هى والهواء الذى يسامتها من فوقها إلى السماء السابعة فإن أمكنهم أن يستقبلوا ذلك الهواء، توجهوا إليه فى صلاتهم، وكانوا مستقبلين للقبلة. وإن تعذر عليهم استقباله، توجهوا حيث شاءوا. لأن المقرر فى الفقه أن استقبال الكعبة شرط فى صحة الصلاة مع الإمكان، وإن تعذر الاستقبال، توجه إلى اى مكان. وعليه حمل بعض العلماء قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥](٢).

أما الصيام، فيتعين فى حقهم: أن يعتمدوا فيه على الحساب. لأن رؤية الهلال فى حقهم متعذرة. فيعملون حسابًا فلكيًا: متى يظهر مكانهم الذى هو القمر، هلالاً لأهل الأرض؟ فيصومون، وكذلك يفطرون بالحساب. ويكون يوم صومهم مقدرًا كتقديره فى الصلاة.

أما الحج، فإنهم ينتقلون إلى الأرض لأدائه. والمسافر إلى القمر، إن أمكنه التحرك فى سفينة الفضاء، صلى فيها بركوع وسجود، متجهًا إلى هواء الكعبة كما سبق. فإن لم

---

(١) حيث يوجد البيت المعمور، قبلة أهل السماء. وهو موازى للكعبة، بحيث لو سقط، وقع عليها.

(٢) وقال جماعة: نزلت الآية فى صلاة المسافر النفل على دابته حيثما توجهت به. والجمهور على أنها نزلت، ردًا على اعتراض اليهود، حين حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

يمكنه التحرك، ولا الاستقبال، صلى بالإيماء متجهًا إلى أى جهة تتيسر له.

وحكم سكان الكواكب الأخرى – إن أمكنت سكناها– حكم سكان القمر فى الصلاة والصيام والحج. إلا أنهم فى الصيام، إن أمكنهم رؤية الهلال، صاموا وأفطروا برؤيته، وإن لم يمكنهم، عملوا بالحساب.

وإن لم يوجد ماء فى الكواكب، فالتيمم يكفى للوضوء وغسل الجنابة. وإن وجدت فيها حيوانات – على سبيل الفرض– فما كان منها مثل الحيوانات المباحة فى الأرض، كالأرنب مثلاً، كان مباحًا. وما كان مثل الحيوانات المحرمة، كالفأر والخنزير، كان حرامًا. وإن لم يعرف له شبيه فى الأرض ينظر، فإن كان ذا ناب يفترس به، أو مخلب يجرح به، أو يتغذى بالنجاسة، كان حرامًا، وإن لم يكن له ناب، ولا مخلب، ولا يتغذى بالنجاسة، كان مباحًا. هذا حكم سكان الكواكب[1]، حسبما تقتضيه قواعد الشريعة الإسلامية، والله أعلم.

---

(١) يجب أن ننبه على أن وصول الإنسان إلى الكواكب الأخرى كالقمر، لا ينقص قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] فقد فهم بعض الناس أن وصول الإنسان إلى القمر، أبطل معنى الآية. وهذا خطأ كبير. بل التحدى فى الآية قائم، ينادى على الجن والإنس بالعجز التام، وسيظل كذلك يتحداهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لأن الآية تقول: يا معشر الجن والإنس إن قدرتم أن تخرجوا من السموات والأرض إلى مكان آخر غير ملك الله، فاخرجوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك إلا بقوة تقاوم قدرة الله؛ ووجود قوة تقاوم قدرة الله محال، فخروجكم إلى غير ملك الله محال. أو إن استطعتم أن تخرجوا من السموات والأرض بحيث لا يلحقكم عذاب الله، فاخرجوا فإنكم لا تستطيعون الإفلات من عذاب الله إلا بسلطان أى بقوة، ولا قوة لكم، هذا معنى الآية بإيضاح وتفصيل. والقصد بها إعلام الجن والإنس أنهم لا يقدرون على الفرار من عذاب الله إن كفروا، لأن مصيرهم إليه. وهم فى قبضته لا يستطيعون أن يهربوا منه إلى غيره. اقرأ قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٣٥–٤٤] فانظر كيف توعد المجرمين من الجن والإنس بنار جهنم، بعد أن أخبر أنهم لا يستطيعون الهرب منها إلا بالخروج عن هذه الدنيا بأرضها وسمواتها،، إلى مكان لا حكم لله فيه. وذلك غير ممكن من جهتين الأولى: أنه فى نفسه محال.

والأخرى: أنه على فرض إمكانه فإن قدرتهم لا تصل إليه. والآية اقتصرت على هذه الجهة، لأن المقام مقام تحدى، والتحدى إنما يتوجه إلى القدرة لأنها مناط العمل. =

وجوب التحرز فى الحديث النبوى

قول النبى ﷺ، شرع ثابت وكذلك فعله وتقريره. لأنه مبلغ عن الله تعالى، ومبين لكتابه. كما قال سبحانه يخاطبه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ومن هنا كان الحديث عنه شديداً، والخطأ فيه جد خطير. وقد أجمع العلماء على أن الكذب فى الحديث النبوى، من الكبائر لقوله عليه الصلاة والسلام «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» وفى لفظ آخر «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وهو حديث متواتر. وفى حديث صحيح «من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» يرى بضم الياء، معناه: يظن. والكاذبين: روى بالتثنية وبالجمع. والمعنى: أن من حدث عن النبى ﷺ بحديث وهو يظن أنه كذب، كان من جملة الكاذبين، يلحقه إثم الكذب، ولعنة الله تعالى. ولقد علم النبى ﷺ أن رجلاً ذهب إلى أناس فى ضواحى المدينة، وقال لهم: إن النبى ﷺ بعثنى إليكم، وأمركم أن تزوجونى بنتكم. فغضب عليه الصلاة والسلام غضباً شديداً، وأرسل إليه أبا بكر وعمر، وأمرهما بقتله وإحراقه. وما ذاك إلا لشناعة الكذب على النبى ﷺ. ولعل هذا الحديث، هو مدرك الإمام أبى محمد الجوينى والد إمام الحرمين، فى حكمه بكفر الكاذب على النبى ﷺ، إذ لو لم يكن ما فعله كفراً، لما أمر بقتله. وهذا الموضوع، مبسوط فى كتب إلى الحديث بتفصيل. وإنما ذكرنا هذه النبذة هنا، لننبه على حديث مكذوب، أذيع ليلة المولد النبوى الشريف سنة ١٣٨٩ هـ فقد أجرت مجلة الهواء، فى تلك الليلة حديثاً مع الشيخ أحمد الباقورى. تكلم فيه عن رفق النبى ﷺ بالنساء، وعطفه عليهن. فنسب إلى البخارى: أنه روى حديثاً جاء فيه: أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يدعوه إلى بيته

= وننبه على مسألة أخرى، وهى أن علم الفلك أثبت أن الأرض كوكب، من جملة الكواكب الواقعة فى المجموعة الشمسية. وأن الشمس ثابتة، والأرض تدور حولها. وأن فى الفضاء اللا نهائى مائة ألف مليون مجرة، كل مجرة تحتوى على مائة ألف مليون كوكب أكبر من الشمس. وهذا يدل على أن الأرض تابعة للشمس، وأنها كوكب صغير بالنسبة للكواكب الضخمة الجبارة. ومع ذلك فالآيات التى أوردناها آنفا، مصرحة بأن الله خلق الشمس والقمر والنجوم وسخرها لنا، وخلق ما فى السموات والأرض جميعًا لمصلحتنا. وقال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعنى آدم وذريته. ثم إن الشمس وتلك النجوم التى هى أضخم منها وأعظم، ما هى إلا أجرام جامدة، لا قيمة لها بالنسبة للإنسان الذى جعله الله أهلاً للتكليف، واصطفى منه الرسل والأنبياء. وجعل منه المصلحين والفلاسفة والعلماء.

لتناول طعام. فقال له النبى ﷺ: «وهذه معى؟» يعنى عائشة. فقال الرجل: لا. فقال النبى ﷺ «لا» ورجع الرجل إليه ثانى مرة، فكان الجواب هو الجواب. فلما وافق ثالث مرة، على دعوة عائشة. أجاب النبى ﷺ دعوته وهذا حديث مكذوب، لم يروه البخارى ولا أحد من أصحاب الكتب الستة، بل لا أصل له إطلاقاً. وهو مخالف لما عرف من حال النبى ﷺ. فقد كان إذا دعى إلى طعام، أجاب الداعى، ولم يشترط عليه أى شرط. بل ثبت فى الصحيحين عن أبى مسعود البدرى قال: دعا رجل النبى ﷺ لطعام صنعه له خامس خمسة. فتبعهم رجل، فلما بلغ الباب قال له النبى ﷺ «إن هذا تبعنا فإن شئت أن تأذن وإن شئت رجع» قال: بل آذن له يا رسول الله.

وأيضًا فإنه ليس بلائق، ولا مستساغ: أن يدعى الرجل إلى طعام، فيشترط على الداعى أن يدعو معه زوجته. ومن فعل هذا يكون دنيىء الطبع ساقط المروءة، عديم الذوق ومن البدهيات فى علمى التوحيد والأصول: أن الأنبياء معصومون من دناءة الطبع، وخوارم المروءة، كعصمتهم من المعاصى. إذ من المستحيل عقلاً: أن يكون دنىء الطبع داعياً إلى الله، أو ساقط المروءة هاديًا إليه.

والشيخ الباقورى يتحمل تبعة هذا الحديث، وعليه يقع إثمه. وهو جرئ على القول فى الدين، بغير تثبت. فكم له من فتاوى، لا سند لها ولا دليل. بل له آراء، تناقض دلائل الشرع وقواعده. دفعه إلى إبدائها رغبته فى أن يعرف بين الناس بالتحرر والمرونة. وإنى كلما قرأت له فتوى، أو سمعت رأيًا له. تذكرت ما يحكى عن شخص سئل: هل تعرف العلم؟ فأجاب: نعم وأزيد فيه! والشيخ الباقورى يزيد فى الشرع حسب الحاجة والهوى!! أباحت الشريعة للرجل الخاطب، أن ينظر إلى المرأة المخطوبة. فزاد هو على ذلك بأن أباح له: أن يخاصر مخطوبته ويقبلها!! ورخصت الشريعة - فى بعض المذاهب للابس الخاتم المأذون له فيه - إذا كان ضيقًا - ألا يحركه فى الوضوء. فأباح هو للمرأة التى تستعمل المونيكير فى أظافرها: أن تتوضأ به ووضوؤها صحيح، مع أنه يحجز الماء عن الوصول إلى الظفر، والوضوء به باطل، باتفاق المذاهب. وأباح أخذ الفوائد التى تتعامل بها المصارف فى القرض، بحجة أن التعامل بها صار ضروريًا فى هذا العصر، وتركها يعد تخلف عن ركب الحضارة!! ولو ذهبنا نعد سقطاته، بل طاماته. لا حتجنا إلى تأليف كتاب مستقل، نسأل الله لنا وله التوفيق.

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

(محاضرة عن التصوف في افريقيا وخدمته للإسلام)

أثر التصوف فى نشر الإسلام بأفريقيا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه وبعد: فإن الحديث عن التصوف والصوفية، وإسهامهم فى المحافظة على التراث الإسلامى بالمغرب، هو حديث طويل، له ذيول كثيرة، ونواح متعددة. والاستفاضة فيه تقتضى وقتًا طويلاً، ومراجع كثيرة. ودراسة حقب طويلة من تاريخ المغرب، والإلمام بتراجم شخصيات عديدة ، لا تكفى فيها محاضرة أو محاضرتان. فضلاً عن إعواز المراجع اللازمة لهذا البحث، وأكثرها لا يزال مخطوطًا. وحتى المطبوع منها أصبح نادرًا، يعز الحصول عليه فى طنجة التى لا تحتوى على مكتبات تجارية هامة، ولا على خزانات عامة. أما المخطوطات فلا وجود لها إطلاقًا، وما بها من مكتبات لا يغنى شيئًا، لا سيما فى بحث تاريخى كهذا. وطالما شكا الباحثون وأهل العلم من إعواز المراجع بهذه المدينة، ولا أنسى أننى احتجت أثناء تحضيرى لدرس، إلى كتاب فى التوحيد، متداول مشهور، طبع عدة مرات. فاستقصيت فى البحث عنه جهد الطاقة، ولم أترك شخصًا أعرفه من أهل العلم بها إلا سألته عنه، ولكن بدون فائدة. وإذا كان هذا هو الشأن فى كتاب دراسى مشهور، فماذا عسى أن يكون الحال فى كتاب نادر، وفى موضوع لا يهم إلا من يعنيه أمره بالذات؟!

لهذا ولجميع ما تقدم، فإنى أعتذر إليكم مقدمًا عن عدم تمكنى من إيفاء الموضوع حقه، وما يستحقه من عناية، لا سيما وهو موضوع طريف، لا يزال بكرًا. يحتاج زيادة على المراجع، إلى وقت وتفرغ، ولا وقت، ولا تفرغ. فمعذرة، والعذر عند كرام الناس مقبول.

ومع هذا وذاك، وعملاً بقاعدة: ما لا يدرك كله، لا يترك كله. فإنى آمل بحول الله أن أعطى نظرة مصغرة موجزة على ما كان للصوفية من فضل فى ميدان نشر العلم والمعرفة والدعوة إلى الله تعالى، والتمسك بأخلاق الإسلام وآدابه، وبث روح المقاومة والجهاد ضد الاحتلال الأجنبى. وكيف اضطلع أهل الزوايا بمهمة الدفاع عن البلاد! حتى انحصرت فيهم فى حقب من تاريخ المغرب.

وما دام الحديث يتعلق بالتصوف والصوفية، فإن من المناسب التعرض فى البداية، للكلام على التصوف نفسه، للتخلص منه إلى صوفية المغرب.

التصوف هو من الموضوعات الخصبة التى شغلت حيزًا مهما من التراث الإسلامى. وما كتب فيه: له أو عليه، يحتل مكانة بارزة فى المكتبة الإسلامية، ومع أن التصوف فى العصر الحاضر لم تبق له تلك الصولة التى كانت له فى القديم، فإن من حسن الحظ أن نرى العناية به، تشتد فى هذه الأيام، ولو فى نطاق البحث العلمى. فنرى رجالاً كثيرين أخذوا يولون عنايتهم ببعث التراث الصوفى الأصيل، والتخصص فى البحث فيه، وفى رجالاته. وتألفت أخيراً فى مصر لجنة نشر التراث الصوفى، وأخذت على نفسها نشر أمهات كتب التصوف. وبالفعل نشرت طائفة من هذه الأمهات، ككتاب الرعاية لحقوق الله، للمحاسبى. واللمع لأبى نصر الطوسى. والتعرف للكلاباذى وغيرها، كما ظهرت عدة دراسات وأبحاث وكتب خاصة بالتصوف، كالتصوف لزكى مبارك والتصوف لأبى العلاء العفيفى وآخرين، وأدرج بحث التصوف ضمن برنامج الفكر الإسلامى، المقرر بالسادسة من التعليم الثانوى، وكان للمستشرقين دور هام فى بعث هذا الاتجاه والعناية بالتصوف، كمظهر من مظاهر الفكر الإسلامى وروحانياته. فكتبوا عنه وعن رجالاته الشىء الكثير، بل كثير منهم تخصصوا فيه، وقصروا بحوثهم عليه.

أما ما هى حقيقة التصوف؟ وما هو موضوعه؟ فإن العلماء اختلفوا اختلافًا كثيرًا طويلاً فى تعريف التصوف، وصعب على الباحثين فيه، وجود تعريف عام جامع مانع كما يقول المناطقة للتصوف. ذلك أن التصوف ليس مذهبًا قائمًا على حدود ضيقة أو أصول وقواعد محدودة، شأن المذاهب الفقهية أو الكلامية مثلاً. ولا هو كذلك علم ذو حدود خاصة، وموضوعات معينة، يمكن اكتسابه بمجرد الاطلاع عليها، والإلمام بها، وإنما هو قبل كل شىء: سلوك ومعاملة، وزهد وعبادة وعزوف عن الدنيا وإقبال على الله تعالى. وهو -بالتالى- ثمرة الإخلاص فى العبادة والمجاهدة فى الله ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩] واسترواح إلى الخواطر الربانية، والإلهامات النورانية. والطرق إليه بهذا المعنى كثيرة ومتعددة، فأى طريق سلك بك إلى هذه الغاية، وتحققت معه بثمرة العبادة والمجاهدة، قيل فيه: تصوف.

ولما كانت هذه الطرق لا تنحصر، حتى قال بعضهم: إن الطرق إلى الله على عدد أنفاس بنى آدم، اختلفت أنظار الصوفية أنفسهم فى تعريف التصوف وحقيقته. فعرفه كل واحد منهم بحسب الطريق التى رأى أنها أقرب فى الوصول إلى الله، وقد أوصل أبو نعيم فى الحلية ما قيل فى التصوف، إلى ألف قول أو تعريف. وأعقب كل ترجمة فى كتابه بتعريف يناسب حال المترجم له وسلوكه، قائلاً عقب كل ترجمة: وقد قيل: التصوف كذا وكذا، مما ينطبق على أحوال صاحبها. وهذا الاختلاف فى الواقع، ليس اختلاف تضاد، يوجب سقوطها عن الاعتبار. وإنما هو اختلاف فى حال، ودليل على شمول التصوف لكل ما قيل فيه. فهو إلى تعدد الأسماء أقرب،وبه أشبه من الخلاف، بالمعنى المفهوم من الخلاف. وذاك دليل على شرفه، وأنه من السعة والشمول، بحيث لا يحصره حد، ولا يجمعه تعريف. وهذا هو سر نسبة الصوفية إلى شعارهم الظاهر، وهو لبس الصوف، دون نسبتهم إلى ما اختصوا به من الكلام على الأحوال والمقامات والمجاهدات. وكان الأولى أن ينسبوا إليها، كما نسب الفقهاء إلى ما اختصوا به من الأحكام، والمحدثون إلى الحديث، والمؤرخون إلى التاريخ، والأدباء إلى الأدب وهكذا. وفى هذا المعنى يقول أبو نصر الطوسى: فإن سأل سائل فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، والفقهاء إلى الفقه. فلم قلت: الصوفية. ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم؟ ولم تضف إليهم حالاً كما أضفت الزهد إلى الزهاد، والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين. فيقال له: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم. وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفًا. وهم مع الله فى الانتقال من حال إلى حال، مستجلين للزيادة. فلما كانوا فى الحقيقة كذلك، لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم. فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالاً دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم. لأنى لو أضفت إليهم فى كل وقت حالاً، هو ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والأعمال، وسميتهم بذلك. لكان يلزم أن أسميهم فى كل وقت باسم آخر، وكنت أضيف إليهم فى كل وقت حالاً دون حال، حسبما يكون الأغلب عليهم. فلما لم يمكن ذلك، نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، وكان ذلك مجملاً عامًا مخبرًا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة اهـ. وهو كلام نفيس للغاية. ومع كل هذه الأقوال التى تبلغ الألف أو تزيد، والتى يصعب تتبعها. لا بأس

بذكر بعضها نموذجًا لما قيل فى التصوف، وعرف به. وللتأكد من أن الاختلاف بينها ليس من قبيل التضاد، وإنما هو من باب الاختلاف فى أهم الأسس التى ينبنى عليها التصوف، ويقوم على ملاحظتها، والتخلق بها. فعبر كل واحد عما رآه أولى وأنسب، أو أهم وأشمل.

فمن هذه الأقوال أو التعريفات:

١- التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة.

٢- التصوف الجد فى السلوك إلى ملك الملوك.

٣- التصوف الموافقة للحق، والمفارقة للخلق.

٤- التصوف ابتغاء الوسيلة، إلى منتهى الفضيلة.

٥- التصوف حفظ الوفاء، وترك الجفاء.

٦- التصوف أن لا تملك شيئًا ولا يملك شىء.

٧- التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده.. الخ.

أما الجنيد فعرفه بقوله: التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة.

قال أخونا أبو الفضل: ولعل هذا التعريف، من أشمل وأوفى ما عرف به التصوف. لأنه تضمن الأسس العامة التى ينبنى عليها، ولا عجب فهو صادر عن الجنيد، إمام الطائفة، ورئيس الطريقة التى به عرفت، وإليه تنتسب. ومثله ما عرفه به ابن خلدون فى المقدمة من أنه: العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله. والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة. ومهما قيل فى حقيقته، واختلف فى تعريفه، فقد أصبح متميزاً بمناهجه وطرقه وموضوعاته وأبحاثه وكتبه ورجالاته.

ومن ثم عد من جملة العلوم الشرعية المستحدثة فى الملة الإسلامية، واعتبر ثالث علوم الدين، بعد التوحيد والفقه. هذه العلوم الثلاثة التى تشرح مقامات الدين، وهى التى ثبتت فى حديث جبريل عليه السلام. وذلك فيما رواه مسلم فى صحيحه عن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر. لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه[١]. وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام؟ أخبرنى عن الإيمان، أخبرت عن الإحسان؟ فأجابه النبى ﷺ عن الإسلام والإيمان، وقال له عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث قال عمر: ثم انطلق الرجل فلبث مليًا، ثم قال «يا عمر أتدرى من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» فسمى رسول الله ﷺ كلاً من الإيمان الذى هو موضوع العقائد، والإسلام الذى هو موضوع الفقه، والإحسان الذى هو موضوع التصوف، دينا. وحين أخذ المسلمون يشتغلون بالتأليف والتدوين، اشتغلت طائفة منهم ببيان أركان الإيمان والعقيدة، فأطلق عليهم علماء التوحيد والكلام. واشتغلت طائفة أخرى ببيان أركان الإسلام وقواعده، فسموا الفقهاء. بينما اشتغل أقوام ببيان مقام الإحسان والطرق الموصلة إليه، فلقبوا بالصوفية.

وهكذا يكون التصوف فى أصله من صميم الدين، وأحد علومه. قال الطوسى فى اللمع: وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله عز وجل، وخبر عن رسول الله ﷺ أو حكمة مستنبطة خطرت على قلب ولى من أولياء الله، وأصل ذلك حديث الإيمان، حيث سأل جبريل النبى ﷺ عن أصول ثلاث؟ عن الإيمان والإسلام والإحسان الظاهر والباطن، وهو قول النبى ﷺ «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وصدقه على ذلك جبريل. قال: والعلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص ، والإخلاص أن يريدا العبد بعلمه وعمله وجه الله تعالى. وهؤلاء الأصناف الثلاثة، فى العلم والعمل متفاوتون، وفى مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلون. إلى أن قال: فكل من أشكل عليه أصل من أصول الدين وفروعه وحقائقه وحدوده وأحكامه ظاهراً وباطنًا، فلابد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة:

---

(١) أى فخذى نفسه، فعل ذلك تأدبًا مع النبى ﷺ، وللإشارة إلى أن الطالب ينبغى له أن يتأدب مع أستاذه.

فتوى لوالد المؤلف عن أصل التصوف ونشأته

أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية، وفى هذا المعنى قال الوالد رحمه الله تعالى -فى جواب له عن أول من أسس طريق التصوف-: وأما أول من أسس الطريقة، وهل كان تأسيسها بوحى؟ فاعلم أن الطريقة أسسها الوحى، فى جملة ما أسس من الدين المحمدى. إذ هى بلا شك مقام الإحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبى ﷺ بعد ما بينها واحداً واحداً، دينا. فقال «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» فغاية ما تدعو إليه الطريقة، وتشير إليه: مقام الإحسان، بعد تصحيح الإسلام والإيمان. فالدين كما فى الحديث، عبارة عن الأركان الثلاثة. فمن أخل بمقام الإحسان الذى هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك، لتركه ركنا من أركانه. ولهذا نص المحققون على وجوب سلوك طريق التصوف وجوبًا عينيا[1]، واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلاً ونقلا. إلى أن قال -فى جواب هل كان الصحابة صوفية؟-: جواب هذا يعلم مما قبله، فإن الطريقة إذا كانت من الدين، بل هى أشرف أركانه. وكانت بوحى كما قلنا، وكان الصحابة بالحالة التى بلغتنا عنهم تواتراً من المسارعة إلى امتثال أمرًا لله، كانوا بالضرورة أول داخل فيها، وعامل بمقتضاها، وذائق لأسرارها وثمراتها. ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد فى الدنيا، والمجاهدة لأنفسهم، ومحبة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة، والصبر والإيثار والرضا والتسليم وغير ذلك، من الأخلاق التى يحبها الله ورسوله، وتوصل إلى قربهما، وهى المعبر عنها بالتصوف[2] والطريقة. وكما كانوا رضى الله عنهم على هذه الحالة، كان اتباعهم أيضًا عليها، وإن كانوا دونهم فيها. وكذلك كان اتباع الاتباع، وهلم جرا. إلى أن ظهرت البدع، وتأخرت الأعمال، وتنافس الناس فى الدنيا، وحييت النفوس بعد موتها. فتأخرت بذلك أنوار القلوب، وكادت الحقائق تنقلب. وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة، ولم يزل ذلك يزيد ونشتد، سنة بعد أخرى، إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين. فانتدب عند ذلك العلماء

---

(١) بينت ذلك فى رسالة «حسن التلطف فى بيان وجوب التصوف» وهى مطبوعة.

(٢) هذا يبين أن الصحابة كانوا متلبسين بالتصوف العملى، وهو كذلك. إلا أن عليا رضى الله عنه امتاز عنهم بتبريزه فى التصوف العلمى أيضًا، فإنه تكلم فى التوحيد والقضاء والقدر، وفى الحقائق والرقائق والحكم بأسلوب عال وبيان متين.

لحفظ الدين، فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الإسلام، وضبط فروعه وقواعده. وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان، وضبط أصوله وقواعده، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان، وضبط أعماله وأحواله. فكان من الطائفة الأولى، الأئمة الأربعة واتباعهم، وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأصحابه، وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه. فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة، وإنما نسبت إليه، لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها، ودعائه للعمل بذلك، عندما ظهر التأخر عنها. ولهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعرى، والفقه إلى الأئمة الأربعة وغيرهم، مع أن الجميع بوحى من الله تعالى. انتهى.

وقال ابن خلدون فى المقدمة: التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصله: أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة، إلى آخر ما سبق نقله عنه. ثم قال: وكان ذلك عامًا فى الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. إذن فالذى حدث هو الاسم، وتمييز المقبلين على العبادة باسم التصوف. أما النهج والطريقة، فهى نفس ما كان عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى أن قال -بعد أن تكلم على الأحوال والمقامات التى خاضوا فيها-: فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام فى الأذواق والمواجيد التى تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقامًا، ويترقى منها إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم، واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم. إذ الأوضاع اللغوية، إنما هى للمعانى المتعارفة. فإذا عرض من المعانى ما هو غير متعارف، اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة، الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهى الأحكام العامة فى العبادات والمعاملات. وصنف مخصوص بالقوم، فى القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها. والكلام فى الأذواق والمواجيد العارضة فى طريقها، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق، وشرح الإصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك. فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم، وصار علم التصوف فى الملة مدونا، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط. وكانت أحكامها إنما تتلقى

من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت. يعني أن نفس هذه العلوم ابتدأت أولاً عن طريق التلقي شفويًا، ثم دونت كما وقع في التصوف تمامًا.

وإنما أكثرت من هذه النقول هنا، لتتبينوا حقيقة التصوف، وأنه من صميم علوم الدين والمسلمين. وأن مصدره الأول كتاب الله وسنة رسوله، لا كما يزعم بعضهم –متأثرًا بآراء المستشرقين– من أنه علم مبتدع في الدين، ودخيل في الإسلام. وأنه متأثر بالمسيحية والأفلاطونية الحديثة، وتصوف الهنود اليوذيين.

رد أحمد أمين على من زعم أن التصوف دخيل في الإسلام

ويعجبني ما قاله أحمد أمين في هذا الموضوع، في الجزء الرابع من ظهر الإسلام، قال: ويحق لنا أن نتساءل هل وجود فكرة في إحدى هذه الأمم، ثم وجودها بعد ذلك في المتصوفة، دليل على أنها أخذت عنها؟ فإذا وجدنا الفناء في البوذية، ثم وجدت فكرة الفناء في الصوفية، هل يكون هذا دليلا على أخذ الآخرين من الأولين؟ قد يكون هذا من التفكير الذي يدعو إلى الشك لا الجزم، خصوصًا وأن هناك موانع كثيرة من هذا الرأي، مثل أن رابعة العدوية امرأة عربية، لم يثبت لنا أنها ثقفت ثقافة أجنبية، وهي أول من تكلم في الحب الإلهي. فمن أين وصل إليها الحب النصراني؟ ثم إن الاتجاهات المتحدة والأمزجة المتحدة، تنتج نتائج متحدة. قد لا نعجب إذا وجدنا النتائج العقلية متحدة في العالم، لأن عقول الناس في العالم متشابهة، وهي تسير على قوانين منطقية واحدة، من مقدمات مشروطة بشروط، وأنواع من القياس. أما العواطف، فمختلفة كثيرة عند الناس. ومع ذلك لما اتحد الصوفيون في طريقة رياضة النفس والمجاهدة والأخذ عن المشايخ، رأيناهم أيضًا تقاربوا في النتائج، ورأينا الصوفي العراقي، يفهم الصوفي الأندلسي والعكس. ومحي الدين ابن العربي الأندلسي، استطاع أن يفهم الحلاج العراقي وهكذا. أفبعد هذا نستطيع أن نجزم بتسرب بعض العناصر المختلفة إلى التصوف؟.. الخ الخ وهو كما ترى في غاية الوجاهة والنفاسة. ومن كل ما سبق ندرك أن التصوف، نشأ أول ما نشأ، عبادة وزهدًا وإقبالاً على الله، وأن ما يدعو إليه كان هو طريقة السلف الصالح عامة من الصحابة والتابعين.. ولذلك لم يعرفوا به، ولم يختصوا بلقبه. إذ كان الشأن في كل مسلم، في تلك العصور أن يكون متحليًا به، متحققًا بمقامه. فكما لم يعرف الصحابة بالفقهاء والمحدثين والمفسرين، مع أنهم كانوا في الواقع فقهاء وأصحاب

حديث ومفسرين ولغويين، فكذلك لم يعرفوا بالصوفية. وإنما عرفوا بالصحابة، لأن شرف الصحبة التى خصوا بها، لا يعادله شىء فى الفضل. قال الطوسى: الصحبة مع رسول الله ﷺ، لها حرمة وتخصيص. من شمله ذلك فلا يجوز أن يطلق عليه اسم، على أنه أشرف من الصحبة. وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته. ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ. فلما نسبوا إلى الصحبة التى هى أجل الأحوال، استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التى هى أشرف الأحوال.

هذا وكما اختلفوا فى حقيقة التصوف وتعريفه، اختلفوا فى لفظة صوفى وأصلها؟ فقيل: أنها نسبة إلى الصف الأول، لما كان شأن أصحابه التزام الصف الأول أى فى الصلاة. وقيل: أنها نسبة إلى الصفة الحميدة، أو الصفاء. وأن الأصل فيها كان: صفوى على القياس، ثم عدل عنها إلى الصوفى تخفيفًا. وقيل: أنها نسبة إلى الصفة – بضم الصاد المشددة ثم الفاء المشددة المفتوحة – وهى موضع مظلل فى آخر المسجد النبوى، كان يأوى إليه فقراء الصحابة والمنقطعون منهم للعبادة. وقيل: أنها نسبة إلى رجل اسمه صوفة أو إلى كلمة سوفيا – اليونانية– بمعنى الحكمة. وقال التادلى فى التشوف: الذى يعول عليه: أن الصوفى هو المنقطع بهمته إلى الله تعالى، المتصرف فى طاعته. وهو فى الأصل منسوبًا إلى صوفة، وهم قوم من العرب. والمتصوف هو المدخل نفسه فى الصوفية. كقولهم تقيس إذا أدخل نفسه فى قيس غيلان. وقال ابن فارس فى مجمله: صوفة قوم كانوا فى الجاهلية يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج. قال أبو عبيدة: هم قبائل اجتمعوا وتشبكوا، كما تشبك الصوف. قال الخليل بن أحمد فى كتاب العين: صوفة حى من تميم، وهم الصوفان الذين كانوا يجيزون الحاج، من عرفات. كان أحدهم يقوم فيقول: أجيزى صوفة. فإذا أجازت، قال: أجيزى خندف، فإذا أجازت، أذن للناس كلهم فى الإجازة والإفاضة. اهـ والأقرب إلى الاشتقاق والواقع أنها نسبة إلى الصوف، لما كان الصوف هو اللباس الغالب عليهم، لأنه يدل على الزهد والخشونة ولأنه كان لباس الأنبياء والصديقين، وشعار المساكين، كما قاله غير واحد منهم. ويروون فى ذلك حديثا. قال ابن خلدون: والأظهر –إن قيل بالاشتقاق يعنى أخذه من شىء للإشارة به إلى حالة خاصة وليس لقبا كما قال القشيرى – أنه من لبس الصوف، وهم فى الغالب مختصون بلبسه. لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب، إلى لبس الصوف. وسئل

أبو على الروذبارى عن الصوفى؟ فقال: من لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى طعم الجنا، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى. والشاهد منه: أنه اعتبر الصوفى من كان لباسه الصوف. ولكنه وإن كان هو الأصل فيه فإنه أصبح بعد لقبا، يعنى ما يعنيه اللقب، أو العلم من غير تقيد بأصل الكلمة وما تشعر به، فمن تحقق به فهو صوفى، حتى ولو لم يلتزم لباسه. قال أبو الفتح البستى:

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... قدما وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

ولغيره:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاءك إذ غنى المغنونا

ولا صياحًا ولا رقاصا ولا طربا ... ولا تغاش كأن قد صرت مجنونًا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا

وأن ترى خاشعًا لله مكتئبا ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

وأول استعماله لقبا على الزهد والعبادة، كان فى القرن الثانى. ويقال: إن أول من أطلق لقب صوفى عليه، هو أبو هاشم الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ على أن الطوسى نقل عن الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ أنه قال: رأيت صوفيا فى الطواف، فأعطيته شيئًا، فلم يأخذه. وقال: معى أربعة حوالق فيكفينى ما معى. بل نقل عن ابن إسحق فى أخبار مكة: ما يفيد أن هذا اللفظ كان معروفًا عند العرب قبل الإسلام، وأنهم كانوا يطلقونه على أهل الصلاح.

وإذا رجعنا إلى تاريخ التصوف لنرى المراحل التى مر بها، نجد أنه كغيره من العلوم والحركات الإسلامية الأخرى، قطع عدة مراحل، وتقلب فى عدة أطوار. ففى الطور الأول ويمتد إلى أواخر القرن الثانى، لم يكن التصوف متميزاً بميزات تخصه. إذ كان كما سبق عبارة عن التقيد بالكتاب والسنة واتباع طريقة الرسول ﷺ. ولم يكن لأصحابه تميز عن غيرهم، ولا أمكنة خاصة بهم، ولا اصطلاحات ولا مقامات. نعم ابتداء من منتصف هذا الطور، أخذ الزهد وحب الله، يتفلسف مع الحسن البصرى ورابعة العدوية.

وكان من أعلامهم فى هذا الطور بعد الصحابة: أويس القرنى، والحسن البصرى، ورابعة العدوية وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وشقيق البلخى، ومعروف الكرخى، وغيرهم. ثم جنح بعد إلى الفكر والتأمل، وظهرت المقامات والاصطلاحات الصوفية، وأخذ فى تدوين الكتب التى تعنى بشرحه وبيان حقائقه. ومن رجاله فى هذا الطور: ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ وهو أول من تكلم فى المقامات الصوفية بمصر. والحارث المحاسبى صاحب الرعاية، وبشر الحافى، وأبو يزيد البسطامى، وقيل: هو أول من تكلم فى مقام الفناء، والحسين بن منصور الحلاج، والجنيد وهو أول من صاغ المعانى الصوفية، وهذبها حتى نسب التصوف إليه. فقيل فيه: طريق الجنيد. يقول صاحب المرشد المعين: وفى طريقة الجنيد السالك، ومثله قول ابن السبكى فى جمع الجوامع: وأن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم، يعنيان التصوف وتوفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ ومن كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به. وأجمع الناس على الثناء عليه.

ثم أخذ التصوف ينتشر بعد على نطاق واسع، وأخذت تبدو من منتحليه أقوال موهمة الظاهر، غامضة المعانى، وهى ما اصطلح على تسميته شطحات. فأنكرها علماء الظاهر، وحاربوا أصحابها، وحذروا منهم. ولم يتوقفوا فى الحكم عليه بالإلحاد والزندقة. لأنهم لم يدركوا مقاصد القوم بها، أو لم يشاءوا أن يتأولوها، خوفًا على العامة من ظاهرها. ومن ثم أفتوا بكفر الحلاج والسهروردى وقتلهما، وقتلا فعلا. وسعوا بذى النون المصرى إلى المتوكل فأشخص إلى بغداد، وسجن بها مدة، ثم أطلق سراحه(١).

(١) قال ذو النون المصرى: لما حملت من مصر فى الحديد، إلى بغداد. لقيتنى امرأة زمنة، فقالت: إذا دخلت على المتوكل، فلا تهبه، ولا ترى أنه فوقك، ولا تحتج لنفسك، محقًا كنت أو متهما. لأنك إن هبته، سلطه الله عليك. وإن حاججت عن نفسك، لم يزدك ذلك إلا وبالا. لأنك باهت الله، فيما يعلمه. وإن كنت بريئًا فاسأل الله أن ينتصر لك، ولا تنتصر لنفسك. فيكلك إليها. فقلت لها: سمعًا وطاعة. فلما دخلت على المتوكل، سلمت عليه بالخلافة. فقال لى: ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة؟ فسكت فقال وزيره: هو حقيق عندى بما قيل فيه. ثم قال لى: لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن قلت: لا، كذبت المسلمين. وإن قلت: نعم، كذبت على نفسى بشىء لا يعلمه الله منى. فافعل أنت ما ترى، فإنى غير منتصر لنفسى فقال المتوكل: هو رجل برىء مما قيل فيه. فخرجت إلى العجوز، فقلت لها: جزاك الله خيرًا، فعلت ما أمرتنى به. ثم قلت لها: من أين لك هذا؟ فقالت: من حيث ما خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام. وكان ذو النون بعد ذلك يقول: من أراد تجريد التوحيد، وخالص التوكل، فعليه بالنساء الزمنى ببغداد. ووجه الأخذ من قصة الهدهد: أنه لم يعتذر لسليمان ولم يحتج لنفسه. بل ترك قضيته، وانتقل إلى الكلام عن ملكة سبأ.

وهكذا بدأ النزاع بين الصوفية وغيرهم من علماء الرسوم والظواهر، كما يسميهم الصوفية، أو رجال الفقه والحديث إلى أن جاء الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، فعنى بالتصوف، وهذبه وبين حقيقته ومراميه، وشرح كثيراً من مقاماته وحقائقه، فى أسلوب مؤثر مدعوم بالنصوص والأدلة. فأبان بذلك فضل التصوف على علم الفقه الذى يقتصر على ظواهر الأحكام، دون النفوذ إلى بواطنها، والحكمة منها، والعمل على تحقيق غايتها وثمرتها. وهى خوف الله ومراقبته، والإنابة إليه. وجعل الاشتغال بالباطن وتهذيبه وتطهيره من العيوب والنقائص الباطنية، كالكبر والحسد والرياء الذى هو موضوع علم التصوف، أهم من معرفة كثير من الأحكام النادرة التى تمتلئ بها كتب الفروع الفقهية. وقلما تقع أو تدعو الحاجة إليها، بينما كل واحد محتاج إلى تطهير نفسه وتزكيتها. فكان لذلك الاشتغال به فرضا عينيا. وأقر القول بالكرامات والكشف واعتبره أفضل طريق إلى معرفة الله تعالى. وهو إنما يكون نتيجة مجاهدة وإقبال بالكلية، على الله سبحانه وتعالى. كما حمل على أدعياء التصوف، وشنع عليهم، وجعل التصوف قوامه العمل والاقتداء برسول الله ﷺ. وبذلك أرضى كلا من الفريقين: الصوفية والفقهاء، عن الآخر. وشرح فى كتابة المنقذ من الضلال: كيف اهتدى إلى التصوف؟ وأنه العلم الوحيد الموصل إلى الله. ومن أجل ذلك هجر ما كان مشتغلاً به من تدريس العلوم، وأقبل بكليته عليه. وألف فيه الكتب العديدة، وأعظمها فائدة، وأكبرها أثراً كتاب الإحياء الذائع الصيت. ثم ظهر بعد الغزالى الشيخ محى الدين ابن العربى الحاتمى الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ. ومعاصره الشيخ عمر بن الفارض المصرى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ الشاعر الصوفى الكبير، فأوغلا فى الشطح، والقول بوحدة الوجود التى لا يدركها على حقيقتها إلا أصحابها. وتبعهما فى ذلك عبد الحق بن سبعين المرسى الأندلسى المتوفى سنة ٦٦٩ هـ وتلميذه الشيخ أبو الحسن على الششترى الأندلسى أيضاً[١]. فكثر فيهم الطعن والقيل والقال، واختلف الناس فيهم من الكفر والزندقة، إلى القطبانية، أكبر درجات المعرفة فى اصطلاح الصوفية. وسلك التصوف معهم مسلكاً فلسفياً غامضاً، قل من يفهمه على وجهه وحقيقته. وهو فى الواقع تصوف الخواص والعارفين، لا تصوف العوام والمريدين، وفهمه يحتاج إلى استعداد خاص. ولذلك نهى كثير من المشايخ عن مطالعة كتب هؤلاء، إلا لمن كان ذا أهلية واستعداد لذلك، خوفاً

---

(١) وكذلك الشيخ عبد الكريم الجيلى، صاحب كتاب «الإنسان الكامل» والعينية المشهورة.

من أن تفهم على غير وجهها وحقيقتها. فيضل القاصر عن القصد، ويتيه فى متاهات ربما أدت به إلى الكفر والانحلال من الدين بالمرة، كما وقع لكثير من القاصرين الذين تطاولوا على غير مقامهم، فضلوا وأضلوا.

وهكذا أخذ التصوف وجهة فلسفية، مع هؤلاء وأضرابهم، فى الوقت الذى كان أبو الحسن الشاذلى الغمارى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ينشر طريقته ومدرسته الصوفية القائمة على مشرب التصوف العملى، والتقيد بطريقة السلف، فى الزهد والعبادة والاشتغال بذكر الله. ولذلك ناصر طريقته جماعة من العلماء، مثل عز الدين بن عبد السلام وغيره، وألف الحافظ السيوطى فى تأييدها كتاب «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» وهو مطبوع بمصر، بتحقيق وتعليق أخينا أبى الفضل.

وأبو الحسن الشاذلى هو تلميذ المولى عبد السلام بن مشيش، أخذ عنه، ثم انتقل بعد إلى تونس، واستقر بشاذلة، فنسب إليها ثم انتقل عنها إلى مصر، واستوطن الإسكندرية، حوالى سنة ٦٤٢ هـ. فحصل عليه إقبال كبير، وأخذ عنه خلق كثير. منهم عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، والشيخ أبو العباس المرسى الذى صحبه من تونس، وهو أجل تلامذته، ووارث سره، وخليفته من بعده. وهو صاحب المشهد الكبير بالإسكندرية، وشيخ البوصيرى صاحب البردة والهمزية، وابن عطاء الله صاحب الحكم. ولم يزل أبو الحسن مستوطنا مصر إلى أن مات بها، وهو فى طريقه إلى الحج، فى حميثرى قرب أسوان، وتبعد عن القاهرة بنحو ألف كيلو متراً، وعلى قبره قبة ومسجد، رغم أن الموضع صحراء وقفار، وقد زرته والحمد لله. وهو صاحب الطريقة التى تعتبر من أكبر الطرق الصوفية أو أكبرها انتشاراً فى المعمورة، وعنها تفرعت سائر الطرق الصوفية بالمغرب ومصر. بل تكون هى والمذهب المالكى وعقيدة الأشعرى فى التوحيد الشخصية الدينية للمسلم فى المغرب العربى، وتعتبر المذاهب الرسمية فيه.

والطريقة المقيدة بالنسبة إلى شيخ مثلا، هى فى اصطلاحهم صحبة المشايخ، والأخذ عنهم سند الطريقة المتسلسل بالشيوخ شيخاً عن شيخ إلى أن ينتهوا به إلى الحسن البصرى، فعلى بن أبى طالب، فرسول الله ﷺ. وهذا السند بهذه السلسلة.. وإن لم يصح عند علماء الحديث والسند ونفى كثير منهم اجتماع الحسن البصرى بعلى فضلا عن أن يكون سمعه وتلقى عنه الطريق، وألبسه الخرقة التى أصبحت سند الصوفية فى التلقى عن الأشياخ -فإن بعض الحفاظ صحح سماع الحسن من على، كالحافظ بن حجر

العسقلانى، والحافظ السيوطى، وأثبتا رواية الحسن عن على حديث « مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » ولأخى سيدى أحمد كتاب قيم سماه « البرهان الواضح الجلى فى ثبوت نسبة الصوفية إلى على » وهو أجمع ما كتب فى سند الصوفية وأوفاها بحثًا وتحقيقًا فى الموضوع، ولا يزال مخطوطًا.

ومهما يكن من أمر فقد أجمع الصوفية على ضرورة التلقى عن الشيوخ، وكون الآخذ من الشيخ هو الركن الأساسى فى طريقهم. وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى مقاماتهم، وإلى المعرفة بالله على اصطلاحهم إلا على يد شيخ عارف كامل. وأن من لا شيخ له، لا عبرة به عندهم. بل هو دعى فى الطريق، لا يثمر ثمراً. وإلى ذلك أشار ابن عاشر فى منظومته « المرشد المعين » بقوله:

يصحب شيخًا عارف المسالك ... يقيه فى طريقه المهالك

يذكره الله إذا رآه ... ويوصل العبد إلى مولاه

ونقل الشيخ ميارة فى شرحه عن ابن عباد شارح الحكم العطائية: أنه قال: ولابد للمريد فى هذا الطريق، من صحبة شيخ محقق مرشد، قد فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه. فيسلم نفسه إليه، وليلتزم طاعته والانقياد إليه، فى كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تأويل. فقد قالوا: من لم يكن له شيخ، فالشيطان شيخه. وقال أبو على الثقفى: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصاحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمامٍ مؤدب ناصح. ومن لم يأخذ أدبه من آمر له أو ناه عنه، يريه عيوب عمله، ورعونات نفسه، فلا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المقامات. وقال أبو الحسن الشاذلى: لا يتم لعالم سلوك فى طريق القوم، ولو ارتفعت درجته فى العلم، إلا بصحبة شيخ ناصح. وهذا معنى قولهم: ما أفلح من أفلح، إلا بصحبة من أفلح. قالوا: والفائدة من الشيخ أن يحمى المريد من كل ما يمنعه منه الوصول إلى الله، من دواعى النفس والهوى والشيطان والشهوة الموقعة فى ظلمة القلب، والتى كثيراً ما تقهر صاحبها وتغلبه على نفسه، أو تخفى عليه، فلا يهتدى إليها، حسن ظن منه بنفسه، واندفاعًا نحو غريزة حب الذات واستعلائها. فيكون الشيخ بمثابة عالم نفسانى للمريد، يريه مكامن الداء، ويحمله على ما من شأنه أن يبصره بعيوب نفسه وشهواتها حتى تتخلص من كدوراتها وتصبح شفافة لطيفة مصقولة قابلة لانطباع الأسرار فيها،

وحلول الأنوار بها، بعد أن تكون خلصت من حظ الشيطان الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم. وحظه هو الذى اشار إليه حديث شق صدر النبى ﷺ ليلة الإسراء، وقول الملك له: هذا حظ الشيطان منك(١). وهذا تفسير قولهم: من لا شيخ له: فالشيطان شيخه. لأنه إذ ذاك يتولاه بحكم تمكنه منه. قال شارح الشريشية -وهى منظومة فى التصوف -: إن سلوك الطريق وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق، لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد، لشيخ محقق مرشد، لأن الطريق عويص، وأدنى زوال يقع عن المحجة، يؤدى إلى مواضع غاية فى البعد.

قال ابن البنا فى المباحث الأصلية:

وإنما القوم مسافرون	لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه إلى دليل	ذى بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد	ليخبر القوم بما استفاد

إذن فاتخاذ شيخ، شرط أساسى عندهم، ولكن بشرط أن يكون كما وصفوه: كاملا عارفا عالما متحققا مقبلا على الله تعالى، معرضا عن الخلق. قد هذب نفسه، وأذن له فى التربية والتلقين. فإذا لم يكن بهذه الصفة، فهو دعى فى الطريق، ومتطفل عليها، لا يجوز الأخذ عنه. وهذا ما يجعل وجوده عزيزاً أو نادراً. لا كما نرى اليوم من أدعياء المشيخة وما أكثر أدعياء المشيخة اليوم! وقبل اليوم! الذين شوهوا الطريق، واتخذوها شبكة ومكسبا. وقد وقع خلاف بين صوفية الأندلس حول ما إذا كان يكفى فى التصوف أخذه عن كتب القوم أم لابد فيه من شيخ. واشتد بينهم الخلاف، حتى

---

(١) إنما قيل له هذا الكلام، حين شق صدره الشريف، عند حليمة السعدية، وهو ابن ست سنين. واخرجت من قلبه علقة سوداء، كانت رمزاً لحظ الشيطان منه. ثم شق صدره الشريف، عند البعثة، ليتلقى الوحى بقلب شديد، واستعداد قوى. ثم شق صدره الشريف، ليلة الإسراء والمعراج. للترقى إلى الملا الأعلى، والثبوت فى المقام الأسنى، وليتقوى قلبه لمشاهدة العلى الأعلى. ولهذا لما لم يتفق لموسى مثل هذا الاستعداد، لم تتفق له الرؤية. وكثير من العلماء أنكر شق صدره الشريف عند البعثة، وليلة الإسراء، ومن الحفاظ من أنكر شق الصدر ليلة المعراج، واعتبره من أوهام شريك القاضى. وقال القطب سيدى عبد العزيز الدباغ: إنه سأل النبى ﷺ عن شق صدره ليلة المعراج؟ فقال: لم يحصل. ورأيت بعض المعاصرين، أنكر شق الصدر من أصله، واعتبر ما صح فيه من وضع القصاص، وكتاب السيرة. وهذا جهل كبير، وجراة على إنكار الحديث الصحيح، بدون تثبت.

تضاربوا بالنعال. فحرروا فى ذلك سؤالاً وجهوا به إلى علماء الأمصار، وكان من جملة من وجهوا إليه سؤالهم: ابن خلدون، فأجاب كل واحد بحسب ما رأى وظهر له. وألف ابن خلدون فى المسألة كتابًا خاصًا ذكره سيدى أحمد ابن عجيبة فى شرحه على المباحث الأصلية. ثم نقل تلخيص جوابه عن الشيخ زروق، وحاصله: أن التصوف إذا كان يراد منه الترقية فى المقامات، والوصول إلى مرتبة الكشف، فلابد فيه من صحبة شيخ. أما إذا كان يراد فيه مجرد الاقتداء والعمل، فيكفى فيه مطالعة كتبهم، للبيب الحاذق الفطن، ولكنه لا يسلم من رعونات النفس وإن وصل، لابتلاء العبد برؤية نفسه.

منشأ الزوايا الصوفية

والمقصود: أن الأخذ عن الشيوخ هو العمود الفقرى فى التصوف، ومن أجل ذلك تعددت الطرق فى التصوف بتعدد شيوخه، وأصبحت كل طريقة منسوبة إلى شيخها والقائم على أمرها. وصحبة المشايخ وسلوك الطريق على أيديهم وتحت مراقبتهم وإرشادهم، اقتضى وجود أمكنة خاصة بهم، كالمدارس بالنسبة لطلبة العلم. وهذه الأماكن هى ما اصطلح على تسميتها عندنا بالمغرب: زوايا،وفى المشرق: خانقاه، وتكية، وكلاهما لفظ أعجمى.

ومع أن الزوايا تأسست أول ما تأسست بقصد تلقين المريدين، والقيام بالشعائر الصوفية، فإنها لم تلبث أن تحولت إلى مدارس دينية، لم تقتصر على تلقين الأذكار، والتفرغ للخلوة والعبادة، بل تعدت ذلك إلى تلقين العلوم الشرعية. وتدريس مختلف العلوم الإسلامية. وأقيمت حولها المدارس والأبنية لسكن الطلبة. فأصبحت الزاوية تقصد لأخذ التصوف والعلم معا. كما أصبحت مقصودة للضيافة، وإيواء الغرباء والمسافرين حتى قيل فى تعريفها: أنها مدرسة دينية، ودار مجانية للضيافة. ولا زال هذا المعنى مفهومًا عندنا بالمغرب، حيث يفهم من (دار الزاوية) أنها الدار المقصودة للضيافة، وإطعام الطعام فيقال مثلا: دارهم دار الزاوية. ومن أقدم الزوايا التى اشتهرت بهذا الاسم فى المغرب، زوايا الشيخ أبى محمد صالح الأسفى المتوفى سنة ٦٣١ هـ، وقد تعددت زواياه حتى بلغت ستا وأربعين زاوية. وانتشرت فى كل من المغرب ومصر والشام، إذ كان هذا الشيخ يشجع أصحابه على الحج إلى بيت الله. فأسس عدة زوايا، لينزل بها الحاج المغربى فى ذهابه وإيابه، من آسفى إلى الحجاز. ويعد ركبه الذى كان على شئونها

والوافدين إليها. وظلت زاويته بالإسكندرية قائمة إلى القرن الحادى عشر، حيث زارها الشيخ أبو سالم العياشى سنة ١٠٧٤ هـ وقال: إنها من مزارات الإسكندرية، ينزل بها الحجاج المغاربة ولهم أوقاف عليها.

وابتداء من القرن الثامن للهجرة الموافق للرابع عشر الميلادى، تكاثرت الزوايا بالمغرب وانتشرت فى كل جهاته، وتأسست حول أمهاتها مدارس لطلبة العلم. ويرى بعض الباحثين المعاصرين: أن أهل الزوايا كان لهم فضل السبق إلى تأسيس هذه المدارس، مما دعا المرينيين إلى العناية بها وإقامتها بجانب المراكز العلمية بالمغرب، وخاصة القرويين.

وإذا كنا نعلم ما كان لمدارس بنى مرين التى أسسوها فى كل من فاس ومكناس ومراكش، عواصم العلم إذ ذاك، من أثر على ازدهار الحركة العلمية وتشجيعها، فضلاً عن ناحيتها الفنية والمعمارية التى لا تزال مفخرة المغرب إلى الآن. وعلمنا ما كان لعملهم هذا من حمل من جاء بعدهم من ملوك المغرب على الاقتداء بهم فى هذا الميدان، وكان فضل السبق إلى تأسيسها يرجع إلى الزوايا. علمنا أى فضل أسدته الزوايا إلى النهضة العلمية بالمغرب، سواء من هذا الطريق غير المباشر، أو من طريقها المباشر. وهو ما قامت به مدارسها الخاصة من دور مهم فى ميدان العلم والثقافة لا يقل فى بعضها عن دور القرويين المعروف، إن لم يفقه فى بعض الأحيان كما سيأتى. بالإضافة إلى ما قامت به فى ميدانها الرئيسى ميدان الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله، وترويض النفوس وتهذيبها، وتحبيب العباد إلى ربهم، وجعل ذلك غايتهم الأولى التى يبذلون من أجلها كل جهودهم. فيضحون بأوقاتهم من أجلها، ويطوفون البلاد فى سبيلها طولها وعرضها، سهولها وجبالها، قاصيها ودانيها. فكانوا يتخذون من أنفسهم دعاة ومبشرين - فى اصطلاح الوقت - إلى الإسلام وفضائله. يعلمون الجاهل، ويعظون الغافل. ويحثون على تقوى الله، ويعطون من أنفسهم القدوة الصالحة، والمثال الحسن، مما يجعل الإقبال عليهم والتأثر بكلامهم، سهلا مقبولاً. فما أن يستقر مريد من مريديهم بين أهله وذويه، حتى يكون موضع تقدير وإكبار. ثم لا يزال بهم إلى أن يحملهم على سلوك طريقته والاقتداء به فى أعمال الخير، والإنابة إلى الله تعالى.

ولن يقدر أعمالهم هذه حق قدرها، ويقدر ما كان لها من أثر على أخلاق الناس وتهذيبهم، وحملهم على التمسك بجادة الدين، والتعلق بأحكامه وتعاليمه إلا من

درس تاريخ المغرب فى العصور التى اجتاحت البلاد فيها فتن داخلية وخارجية، وتقلص نفوذ السلطة المركزية، فى حظيرة المدن وحدها، ولم تبق هناك سلطة قادرة على حفظ النظام، وكفّ الظالم عن المظلوم، فضلاً عن تعهد الرعية من الناحية الدينية والعلمية والأخلاقية، وإمدادها بما يلزم من الوعاظ والعلماء، لا سيما فى النواحى النائية عن مركز سلطتهم. فعمت الفوضى، وانتشر الجهل، وخلت جهات كثيرة من أهل العلم. وعاد أهلها إلى جاهليتهم الأولى، فحكموا الأعراف والتقاليد، وامتشقوا الحسام للنهب والغزو. ثم جاء الغزو الأجنبى ضغثًا على إبالة. فزاد فى حيرة الناس واضطرابهم، وساءت الأحوال عمومًا وأصيب الناس بابلاس وحيرة. فأظلم الجو فى البلاد، وفتن الناس فى دينهم ودنياهم. وخاصة فى الجهات النائية التى لم تستضىء بنور العلم، ولم يكن بها علماء يثبتون الناس ويعظونهم. فكان من عناية الله بهذه البلاد وفضله على أهلها، أن صادفت هذه الأحوال المدلهمة التى تردى فيها المغرب ابتداء من العصر الوطاسى وما رافقه وتبعه من أحداث، وجود هذه الزوايا، وانتشار اتباعها فى طول البلاد وعرضها. فأخذت على عاتقها مهمة التذكير، وتثبيت الناس على دينهم وعقائدهم. فكانت بمثابة منارات فى وسط ليل بهيم، يشع منها نور الإيمان والعلم والإسلام، ويهتدى الناس فى ضوئها إلى الطريق المستقيم.

وبالرجوع إلى تاريخ قبائل المغرب، نجد أن أغلب القبائل التى عرفت التصوف والصوفية وكانت ميدانًا لرجالاته، ظلت فى الغالب محافظة على دينها، فى تقاليدها وأحكامها، لم تستبدل به عرفًا. وظل أهلها محافظين على تعليم أبنائهم القرآن، وتوظيف الفقهاء والطلبة بمساجدهم، على عكس القبائل الأخرى التى ترددت إلى أعراف جاهلية وإباحية، يجعل الواحد منهم يتزوج بلا عدد، ويطلق كذلك بلا عدد. ويقدم الرجل منهم زوجته إكرامًا لضيفه، ويغضب إذا تعفف فردها عليه. وقل مثل هذا، فى معاملاتهم الأخرى. مما أطمع الفرنسيين أخيرًا فى فصلهم عن الأمة، تمهيدًا لتنصيرهم، فى الظهير البربرى المعروف الذى كان له فضل بعث الحركة الوطنية فى المغرب. وما أن هاجم البرتغال والأسبان شواطئ المغرب، واحتلوا بعض مدنه الساحلية، حتى ظهر فضل آخر لهذه الزوايا، فى بعث حركة الجهاد والمقاومة، وقيادة الأمة لطرد العد وعنها، فى معارك ظافرة، انتهت بطرد البرتغال عن الشواطئ الجنوبية، وإيقاف زحفه فى الجهات الشمالية وتنصيبهم الشرفاء السعديين ملوكًا على المغرب. يقول أحمد الناصرى فى

الاستقصاء: لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، أمر السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ بامتحان أرباب الزوايا، والمتصدرين للمشيخة، خوفًا على ملكه منهم. ولما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة، والوقوف عند إشارتهم. ألا ترى أن بيعة والده أبى عبد الله القائم، لم تنعقد إلا بهم ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم، إلى آخر كلامه. وشاهدنا منه: تصريحه بأن السعديين إنما قاموا على يد أصحاب الزوايا(١). وحكى لى ولدا صاحب الاستقصاء الأستاذان الأديبان الجليلان السيد جعفر والسيد محمد: أن قيام الدولة العلوية، كان بإيعاز من الشيخ سيدى محمد بن ناصر، وهو الذى عمل على نصرة مولاى محمد بن الشريف إلى أن تم له الأمر. وقالا: إن السلطان المرحوم مولاى يوسف حدث أخاهما السيد العربى بهذا. والقضية معروفة عند السادة العلويين. وممن ذكرها بتفصيل سيدى الحسين الشرحبيلى السوسى تلميذ الشيخ سيدى محمد فى شرحه المسمى «هداية مالك الأمر لمسالك سيف النصرى» للشيخ المذكور ولا يزال مخطوطًا. وحين تأسست الدولة السعدية، شاركوا بنصيب وافر فيما قامت به من جهاد ضد العدو، سواء فى الشمال أو الجنوب، ولا سيما فى واقعة وادى المخازن التى شارك فيها كثير من شيوخهم وأتباعهم، مثل سيدى يوسف الفاسى، وسيدى محمد بن على بن ريسون وغيرهما، وأبلوا فيها البلاء الحسن، كما هو معروف.

وما أن عاد المغرب إلى الانقسام والضعف أثر وفاة أحمد المنصور الذهبى سنة ١٠١٢ هـ بسبب تنازع أبنائه على الملك، حتى عادت أطماع العدو فى البلاد، وأخذت أسبانيا تغير عليها وتحتل بعض المدن الساحلية وكانت السلطة المركزية بمراكش مشغولة بأمر نفسها، عاجزة عن الدفاع والوقوف فى وجه العدو. بل نرى أحد أبناء المنصور وهو المأمون الشيخ، يتواطأ مع العدو، ويتنازل لأسبانيا عن العرائشى فى مقابل نصرته وإمداده بما هو فى حاجة إليه. فتصدى رجال الزوايا من جديد للقيام بأعباء الجهاد، وانحصر أمره فيهم حتى أطلق الأوربيون على هذا العصر، عصر الزوايا، وهكذا قامت إمارة الشيخ العياشى بسلا، وإمارة الزاوية الدلائية بتادلا وفاس ومكناس وناحيتهما وإمارة أبى حسون السملالى المعروف ببود ميعة من ذرية الشيخ سيدى أحمد بن موسى بسوس وناحيتها.

---

(١) كتب صاحب المحاضرة، هذه الكلمة: يقول الأستاذ داود فى تاريخ تطوان: وظهور التصوف، وانتشار الطرق، وخصوصًا فى أوساط العوام. كان له ولا شك أثر كبير فى الحياة العامة، وخصوصًا من الناحية الاجتماعية.

فاضطلعوا جميعاً بأعباء الجهاد، ورد عادية العدو. وكان لهم فى الإيقاع بالعدو ونكايته، ما يعرف بالوقوف عليه فى مصادرة إلى ما قاموا به أخيراً من تنظيم عدة حركات، ضد الاحتلال الأسبانى والفرنسى وإن لم يكتب لها النصر والظفر، ولم تحظ إلى الآن بمن يؤرخها، ويحقق فى أمرها شأن سابقاتها. ولو وجدت من يعتنى بها، لكانت صفحة جديدة مشرقة من تاريخ رجال الزوايا الطويل فى ميدان الجهاد والكفاح الوطنى. إلى ما قام به المجاهد الأمير السيد عبد القادر محى الدين بالجزائر، وهو مغربى الأصل، وابن زاوية مشهورة بنواحى تلمسان. وبسبب مركز أبيه وزاويته انتدب أهل تلك البلاد أباه إلى القيام بالجهاد ضد الاحتلال الفرنسى، ورغبوا إليه أن ينظم حركتهم، ويبايعوه على الطاعة فأشار عليهم بابنه عبد القادر فتزعم الحركة، وكان من أمره ومثابرته للعدو وحده ١٧ سنة إلى أن اضطر إلى الاستسلام، لعوامل الغدر والخيانة، وتكالب قوى الشر عليه. كما اضطر الأمير عبد الكريم إلى ذلك، للسبب نفسه. والأمير عبد القادر نفسه صوفى كبير[١]، له فى التصوف كتاب المواقف، فى ثلاثة أجزاء، طبعته امرأة غنية بمصر، ووزعته مجانا. ومن وقف عليه وقرأه، يعرف ماله من مكانة فى التصوف، رحمه الله.

ويأتى أخيراً الشيخ سيدى محمد بن على السنوسى، صاحب الطريقة السنوسية المشهورة فى مجموع القارة الأفريقية، فيؤسس زاويته بجغبوب بطرابلس الغرب، ليبيا. ليستحيل إلى معهد علمى كبير، ثم إلى جامعة كما هى عليه الآن. ولتنشر أنوار الهداية الإسلامية ساطعة فى قلب أفريقيا السوداء. ثم ليتبوأ حركة الجهاد والمقاومة ضد الاحتلال الإيطالى لطرابلس. تلك الحركة التى أقضت مضاجع الإيطاليين، وكبدتهم من الخسائر ما لا يحصى. وكانت هى مع ثورة الأمير عبد القادر بالجزائر، وثورة الأمير عبد الكريم أخيراً بالمغرب، من أعنف وأشد ما عرفه الاستعمار من مقاومة الشعوب الإسلامية. وارجع إلى ما كتبه شكيب أرسلان عن هذه الثورات، فى حاضر العالم الإسلامى، ولا سيما حركة السنوسى التى كان له برجالها اتصال مباشر. وما مبايعة أهل طرابلس لأحد أبناء السنوسى ملكًا عليهم، وهو الملك السيد إدريس السنوسى الأول، إلا دليل على ما كان لجده من فضل عليهم، واعتراف بجميل الزاوية السنوسية على طرابلس.

---

(١) وهو شاذلى الطريقة، أخذها عن العارف الكبير الشيخ محمد بن مسعود الفاسى بمكة.

قال المؤرخ الإنجليزى المعاصر دوم لاندوز، فى تاريخ المغرب فى القرن العشرين: إن الطرق الصوفية من الملامح المهمة فى التاريخ المغربى، وثمة وثائق تدل على ازدهارها منذ القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس والسادس للهجرة) وزوايا هذه الطرق كثيرًا ما كانت تستعمل بالإضافة إلى كونها مراكز لنشاط دينى، مدارس وملاجئ وبيوتًا لعمل الخير، على نحو ما كانت تقوم به الأديرة فى أوربا فى العصور الوسطى. وقد كان الدين بطبيعة الحال، وثيق الاتصال دوما بالحياة اليومية لكل مغربى. إنه حياته، وليس مجرد أمور ثانوية ومن ثم لم تلبث الطرق الدينية أن أخذت تقوم بدور هام فى الحياة الوطنية، وثمة بضعة من الأسد الذين أنشأوا الأسر المغربية الحاكمة، بدأوا زحفهم نحو العرش من إحدى هذه الزوايا. وفى الزمن الذى كان يحاول فيه الأسبان والبرتغال أن يحتلوا المغرب، كانت الزوايا فقط، الالتقاء الرئيسى للحياة الوطنية والمقاومة. ويقول فى صـ٣٩ من الكتاب نفسه: وبما أن هذه الطرق كانت تقوم بدورها كنقطة انطلاق للوطنية والمقاومة، فإنها لم تكن تنظر إلى الكفار والأجانب نظرة ارتياح. وغالبًا ما كان تأثيرها يحول دون إقامة علاقات أفضل بين المخزن[1]، والدول الأوربية.

اعتراف المبشرين بأن خصمهم فى أفريقيا هم الصوفية

وكما كان لهم فضل الجهاد بالسيف، ضد العدو فى المغرب وشمال أفريقيا بصفة عامة، كان لهم فضل جهاد من نوع آخر، وهو عملهم ضد التبشير المسيحى، وحيلولتهم دون الوصول إلى أغراضه فى أفريقيا السوداء. ونشر الإسلام بها على نطاق واسع، أدهش رجال التبشير والأمم النصرانية. حتى إن كثيرًا من البلاد الأفريقية إنما عرفت الإسلام عن طريقهم. قال صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامى الذى علق عليه شكيب أرسلان فى جـ٢ صـ٣٩٣: إنه من سنة ١١٥٠ إلى سنة ١٩٠١ نهض الإسلام بأفريقيا نهضة ثالثة، على أيدى مشايخ الطرق. وذلك أنه فى أواخر القرن ١٨، لما دخلت الدعوة البرتوستانتية من كل نوع إلى أفريقيا، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بدافع المنافسة، كان لابد من أن يتنبه الإسلام لمقاومة النصرانية، وأن يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقاتلتين. وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة، راجع إلى التصوف إلى أن قال: فى القرن

---

(١) المخزن فى اللهجة المغربية، هو الحكومة. والمخزنى هو الشرطى الذى يدعو المتخاصمين إلى الحضور عند الحاكم.

الثانى عشر والثالث عشر تأسست طرق الدراويش - يعنى الصوفية - كأنها نوع مقابلة للرهبانية النصرانية، وللحروب الصليبية. وفى القرنين ١٨، ١٩ حصلت نهضة جديدة عند اتباع الطريقتين القادرية والشاذلية، ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية[١].

ونقل صاحب كتاب (الغارة على العالم الإسلامى) فى تاريخ التبشير المسيحى، عن بلس: أنه قال: إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقيا، وليس خصمنا هو العربى الذى يرتاد البلاد للتجارة. بل إن هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش (أى الفقير الصوفى فى اصطلاح المغاربة) صاحب النفوذ فى أفريقيا، أكثر مما هو كذلك فى فارس.

وذكر فى موضع آخر: أن إحصائيات المبشرين دلتهم على أن أكبر عامل على انتشار الإسلام بأفريقيا هو رجال الطرق الصوفية. وارجع إلى ما كتبه شكيب أرسلان فى تعاليقه على حاضر العالم الإسلامى، وما كتبه الدكتور حسن إبراهيم حسن عن موضوع انتشار الإسلام فى أفريقيا ودور الطرقيين فيه، لترى أى فضل لهم فى نشر الإسلام بالديار الأفريقية؟

والحاصل أن الحديث عن التصوف والصوفية، ذو شجون فمعذرة إذا كنت أطلت عليكم واستسمحكم شاكراً لكم صبركم معى، لو تفضلتم بإتمام ما تبقى من المحاضرة، بالكلام على ذكر بعض الزوايا التى كان لها يد طولى، وفضل كبير، فى نشر العلم والمعرفة بهذه الديار، بمن أخرجتهم من علماء وأدباء وفقهاء، فضلاً عن رجالات التصوف وأعلامه.

ومن أهم هذه الزوايا: الزاوية الدلائية التى تأسست فى الثلث الأخير من القرن العاشر الهجرى، بناحية تادلا. وينتسب أهلها إلى قبيلة مجّاط، إحدى فروع قبيلة صنهاجة الكبرى بالصحراء، وقد استوطنوا تادلا فى أواخر القرن الثامن الهجرى.

ومنذ استوطنوها وهم محل تكريم وإجلال من ملوك عصرهم، سواء فى عهد بنى مرين أو الوطاسيين، أو السعديين، مما يدل على ما كان لهم من مكانة، حتى قبل تأسيس زاويتهم وأول من ظهر على مسرح التصوف منهم، وأسس زاويتهم هو الشيخ أبو بكر

(١) سبق أن الطريقة التيجانية، فرع عن الطريقة الخلوتية، أما الطريقة السنوسية، فإنها ترجع إلى الشاذلية.

بن محمد الدلائى، بإشارة من شيخه أبى عمر القسطلى دفين روض العروس بمراكش، تلميذ عبد الكريم الفلاح تلميذ سيدى عبد العزيز التباع، تلميذ الشيخ الشهير سيدى محمد بن سليمان الجزولى صاحب دلائل الخيرات الشاذلى المتوفى سنة ٨٧٠ هـ.

وما أسس محمد بن أبى بكر الدلائى زاويته، حتى أصبحت مورد المريدين والطلبة والمساكين وأهل العلم وغيرهم. إلى أن استحالت بعد إلى مدينة عامرة بأسواقها ومدارسها وتجارها، وكان أبو بكر ذا ثروة هائلة، لأنه من أسرة ثرية. فصار يطعم الطعام الكثير، ويكرم الواردين على زاويته، فى سخاء نادر.

اندهش له الناس، وتعجبوا منه. ثم سار على نهجه ابنه محمد بن محمد بن أبى بكر، وفى أيامه زادت شهرة الزاوية، وعظم صيتها، حتى غصت رحابها بالوافدين والطلاب والمريدين. وكان يقيم كل سنة، احتفالاً عظيمًا بالمولد النبوى، يقصده الناس من كل مكان. وقدر عدد الحاضرين فى أحد الاحتفالات، بسبعين ألف نفس. وكانوا جميعًا ينزلون ضيوفًا عليه، فينالون من حفاوته وإكرامه وصلاته وجوائزه، ما تقر به أعينهم. وكان الشعراء يقصدونه فى هذه المناسبة، وينشدون بين يديه قصائدهم فى مدح الرسول ﷺ، فيكافئهم على ذلك بالصلات السنية. فإذا ما مدحوه، قصر فى حقهم، ولم يلتفت إليهم. فقد جاءه الأديب عمرو بن قاسم الرباطى، بقصيدتين: أحدهما فى مدح الرسول، والأخرى فى مدحه. فلما انقضى الحفل، وحضر الأديب لوداعه، أعطاه صرة فيها مائتا دينار بيده اليمنى، وأعطاه فلسا واحدًا بيده اليسرى. وقال له: هذه الدنانير، جائزتك على مدح الرسول ﷺ. وهذا الفلس جائزتك على مدح محمد بن أبى بكر، إذا لا يستحق أن يمدح.

وبقدر ما كان معنيًا بشأن الفقراء والمريدين والزوار، كان معنيًا كذلك بنشر العلم وتدريسه. فأصبحت الزاوية الدلائية فى عهده، مركزًا علميًا كبيرًا، يقصده الطلاب من كل حدب وصوب. فكثرت المدارس بها لإيواء الطلبة، وكان بإحداها فقط ألف وأربعمائة بيت[١]. ومع ذلك ولكثرة الطلبة، كان يسكن بالبيت الواحد من هذه المدارس العديدة، طالبان فأكثر. وهذا يدلنا على عظمة الزاوية، وإلى أى عدد بلغ طلابها. ولما أصبحت مركزًا علميًا، اقتضى ذلك تأسيس خزانة علمية بها. فأسست بها

---

(١) أى غرفة أو أوضة باللهجة المصرية.

خزانة عظيمة، شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصر الأموى. ونحن نعرف مقدار ما كان بخزانة الحكم من الكتب، وأن فهارسها وحدها كانت تبلغ أربعًا وأربعين فهرسًا، فى كل فهرست عشرون ورقة، ليس بها إلا أسماء الكتب. ويظهر من تشبيههم لها بخزانة الحكم، دون أى خزانة أخرى بالمغرب. أنها كانت أعظم خزانة إذ ذاك بالمغرب. وإلا لما عدلوا عن تشبيهها بخزانة مغربية حاضرة، إلى خزانة أندلسية تاريخية.

وبلغ شأن هذه الزاوية فى الميدان العلمى، حتى نافست القرويين، أو زادت عليها. يقول الأستاذ عبد الله كنون فى كتابه (خل وبقل): إن الثقافة اللغوية المتينة التى كانت موجودة فى زاوية الولائيين، حيث درس اليوسى أقوى منها فى فاس. بل إننا نقول: إن الثقافة اللغوية المتينة التى كانت موجودة فى زاوية الدلائيين، هى التى أحيت ذمار الأدب العربى فى المغرب بعد عدم. ويقول فى كتابه النبوغ – بعد أن ذكر ما كان لتنازع أبناء المنصور على الملك من الأثر السيء على الأوساط العلمية بالمغرب ولكن من الألطاف الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية، فى ذلك الحين. فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلم والأدب الذى كاد أن يضيع فقامت عليه خير قيام. وما هى إلا مدة قليلة حتى صارت مركزًا مهما لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب. ولو لم يقض عليها المولى رشيد، لكان للمعارف اليوم بالمغرب شأن غير هذا الشأن. وقال الناصرى فى الاستقصاء: وكان لهذه الزاوية، صيت عظيم، فى أيام محمد الحاج وأبيه محمد بن أبى بكر السالف الذكر. وكان بها من معاطاة العلوم والدؤب على درسها واقرائها وقراءتها ليلا ونهاراً، ما تخرج به جماعة من صدور العلماء، كالشيخ اليوسى وأضرابه. حتى كانت إليها الرحلة فى المغرب، لا يعدوها الطالب، ولا يأمل سواها الراغب. وتمهد بها الأمر لأبى عبد الله محمد الحاج وأولاده وإخوانه وبنى عمه، إلى أن تملك مدينة فاس ومكناسة، وأحوازهما وكافة القطر التادلى. ولو لم يكن بين خريجى هذه الزاوية – وما أكثرهم وأكثر علمهم وتآليفهم! إلا الشيخ أبو على الحسن اليوسى لكفى. وهو الذى قيل فيه:

من فاته الحسن البصرى يدركه   فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

وكان إلى مكانته العلمية، وتضلعه فى علوم الشريعة من فقه وأصول وكلام ومنطق، ذا مكانة أدبية ممتازة، وشاعرًا كبيرًا، حتى قال عن نفسه: لو شئت ألا أتكلم إلا بالشعر، لفعلت. وله ديوان شعر فى جملة ما خلف من الآثار العلمية. وقد رثى الزاوية الدلائية

بعد نكبتها بقصيدة بليغة مطلعها:

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمراً

هذا إلى أبنائها العلماء الأفذاذ، كالسادة الذين عرفوا بعد بالمسنادين، كالشيخ محمد والطيب وغيرها. وقد خصهم محمد بن عبد الودود التازى بترجمة خاصة سماها (نزهة الأخيار المرضيين فى مناقب العلماء الدلائيين) وخص كذلك الزاوية الدلائية الأديب سيدى سليمان الحوات العلمى الشفشاونى بترجمة حافلة، سماها (البدور الضاوية فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية) ولا يزال مخطوطاً. وكتب فيهم أخيراً الأستاذ محمد حجّى أستاذ بكلية الآداب بالرباط، بحثًا مفيداً نال به درجة الدبلوم فى الدراسات العليا، من كلية الرباط.

وبعد الزاوية الدلائية، فى الأهمية تأتى زوايا أخرى كثيرة. منها: الزاوية الناصرية بتامكروت بدرعة جنوبى المغرب، على مقربة من زاكورة. وقد أسس هذه الزاوية أولاً: الشيخ عمر الأنصارى، أحد أعيان درعة وصلحائها. ثم استقر بها بعد، الشيخ عبد الله بن حسين الرقى الشاذلى، فقصده بها الشيخ محمد بن ناصر مؤسس الطريقة الناصرية، للأخذ عنه عام ١٠٤٠ هـ، ولما مات الشيخ عبد الله الرقى، تصدر سيدى محمد بن ناصر لرياسة الزاوية واستقل بها. وأقبل على تدريس العلم بها للطلبة، والأخذ بيد المريدين. فانتفع به خلق كثير، وطار صيته شرق وغرباً، لأنه حج مرتين، فأخذ عنه كثير من المشارقة. ومن تلامذته الشيخ اليوسى الآنف الذكر، لأنه كان أخذ عنه الطريقة الشاذلية، قبل أن يتصل بالزاوية الدلائية. وله فى مدحه قصيدة دالية طويلة، تبلغ ٤٥٠ بيتًا. وهى مطبوعة على حدة. ومن تلامذته كذلك، العلامة المطلع المشارك أبو سالم العياشى صاحب الزاوية العياشية، ومؤلف الرحلة المشهورة. وتاريخ الزاوية الناصرية، وما تفرع عنها من زوايا، وتاريخ رجالها وأبنائها، مبسوط فى كتاب (طلعه المشترى) المطبوع بفاس، وهو لصاحب الاستقصاء.

ومن الزوايا الشهيرة بالمغرب، والتى تأسست هى كذلك فى هذا العصر: الزاوية الفاسية التى أسسها الشيخ أبو المحاسن سيدى يوسف الفاسى أحد رجال الطريقة الدقاوية، والمتوفى سنة ١٠١٣ هـ وهو تلميذ سيدى عبد الرحمن المجذوب. وقد تخرج

من هذه الزاوية على يد أبنائها علماء أجلة، ورجال كبار.. وكان للسادة الفاسيين من المجد العلمي، واليد الطولى فى التصوف وعلومه، ما هو معروف. ويكفى فى مجدهم أن السلطان مولاى سليمان ألف فى تراجمهم بنفسه كتاب (غاية المجد بذكر آل الفاسى ابن الجد) والكتاب مطبوع.

ثم الزاوية العياشية المعروفة اليوم بزاوية سيدى حمزة، بسفح جبل العياشى، بناحية ميدلت.

وأول من أسسها هو الشيخ محمد بن أبى بكر العياشى والد أبى سالم المتقدم، بإشارة من شيخه محمد بن أبى بكر الدلائى عام ١٠٤٤ هـ وآل أمرها من بعده إلى أبى سالم، ثم حمزة ابنه، وبه عرفت. وقد قامت بها كذلك، حركة علمية، وأسست بها خزانة، لا تزال موجودة إلى الآن، وتعد ذات قيمة كبرى.

ثم تأسست بعد، الزاوية الدرقاوية مع الشريف مولاى العربى الدرقاوى، دفين بنى زروال، بأحواز فاس. والمتوفى سنة ١٢٣٩ هـ وكان فى وقته كالشيخ عبد الله الغزوانى، دفين القصور بمراكش، فى كثرة أتباعه وما تفرع عن طريقته من عدة طرق، انتشرت فى مجموع البلاد الإسلامية. ولم يمت مولاى العربى حتى خلف نحو الأربعين ألفا من التلاميذ، كلهم متأهلون للدلالة على الله عز وجل. ومن أشهر أتباعه الشيخ محمد البوزيدى، دفين غمارة، وتلميذه الشريف سيدى أحمد بن عجيبة صاحب التفسير، وشرح الحكم وغيرهما من الكتب القيمة فى التصوف، والشيخ محمد الحراق دفين تطوان، وصاحب الديوان فى الشعر الصوفى. وجدنا الإمام سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن، صاحب أدب المريد، ودفين غمارة، وهو وارث سره من بعده وقد ترجم له غير واحد، منهم محمد بن القاضى، ألف فى ترجمته كتاب «النور القوى فى ترجمة شيخنا سيدى عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاى العربى الدرقاوى» ثم الزاوية التيجانية وما تفرع عنها من زوايا فى جل العالم الإسلامى، وخاصة فى أفريقيا من المغرب إلى مصر. ثم الزاوية الوزانية مع مولاى عبد الله الشريف، وكان بها كذلك خزانة علمية مهمة، حتى أن الشيخ العلامة الرهونى ألف حاشيته التى تعتبر عمدة الفقهاء والقضاة والمفتيين من خزانتها(١). وقل مثل ذلك عن الزاوية الريسونية بتازروت، من قبيلة بنى عروس وقد

(١) وهى حاشيته على شرح الزرقانى لمختصر خليل، وله حاشية على شرح مبارة الكبير للمرشد المعين، فى أربعة مجلدات. اطلع عليها مولانا الأستاذ الإمام الوالد وأثنى عليها كثيراً.

أسسها سيدى محمد بن عليّ بن ريسون، تلميذ الشيخ سيدى عبد الله أمغار الحسنى، فى أواسط القرن التاسع الهجرى، وتخرج منها كذلك، عدد العلماء.

هذا عدا الزوايا التى قامت فى جنوب المغرب وصحرائه. ومن أشهرها الزاوية السملالية التى أسسها الشيخ سيدى أحمد بن موسى بتازوالت، وكان لها من النفوذ والظهور ما مكن رجالها بعد، من تملك سوس وغيرها من البلاد الصحراوية. بل امتد سلطانها إلى السودان، فى عهد إمارة الشيخ إيلغ التى أسسها أحد حفدة الشيخ أبي حسون المعروف ببودميعة. وبلغ من شأن مؤسسها سيدى أحمد بن موسى تلميذ سيدى عبد العزيز التباع، أن زاره السلطان أبو عبد الله الغالب السعدى، وأخذ عنه. وارجع إلى تاريخ هذه الزاوية فى كتاب «إيلغ قديمًا وحديثًا» للمرحوم محمد المختار السوسى. وكزاوية الشيخ ماء العينين بشنقيط، وما كان من أبنائها من محاربة الاحتلال الفرنسى، بموريتانيا ونزوح ماء العينين عنها إلى المغرب فى نحو عشرة آلاف من أتباعه، ثم قيامهم بمحاربة الفرنسيين عند إعلان الحماية، مدة قاس منها الفرنسيون كثيرًا، وتمكن من الاستيلاء على مراكش مدة، ثم خرج عنها وتاريخ أحمد الهيبة، ابن ماء العينين، فى الكفاح معروف.

وكما كان نشاط هذه الزوايا قائمًا على أشده، فى داخل المغرب، كان لأخواتها الممتدة فى طول البلاد وعرضها، نشاطها كذلك. وكان هناك تواصل وتزاور وتبادل بين هذه الزوايا المختلفة، مما جعل حركة علمية مباركة، ونهضة صوفية عظيمة، تشمل العالم الإسلامى كله تقريبًا. ولذلك تراهم يتصدرون المعركة فى وجه الاستعمار الأجنبى هنا وهناك، لما كان لهم من نفوذ ومنزلة.

أفبعد هذا يصح أن ينظر إلى التصوف ورجاله على أنهم من عوامل انحطاط المسلمين وتأخرهم؟ كما يلذ لمن يجهل تاريخهم أن ينسبه إليهم. وقديمًا قيل: من جهل شيئًا عاداه.

نعم أنا لا أنكر أنه كثر الدخيل فى التصوف، وكثر المدعون له، والمحترفون به. ولكن لا يمكن بحال أن يتحمل التصوف ذاته تبعة ذلك، ويكون سبب الحكم عليه وعلى جميع رجالاته جملة وتفصيلاً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الأنعام: ١٦٤]

وكذلك لا أنكر من جهة أخرى أنه كثر فيه الابتداع، وألصقت به خرافات وأوهام، بسبب الجهلة من الطرقيين والمغترين بهم. ولكن الإنصاف يقضى بقصر الانتقاد على البدع المحدثة، دون شموله لكل طرقى ومتصوف. فمن الحق أن يعترف لكل واحد بعمله، ويميز فى ميدان النقد والإصلاح الصوفى الذى نتمناه من كل قلوبنا، بين الطيب والخبيث، والجيد والردئ. فنعيب على الطرقيين الذين انحدروا إلى هوة سحيقة من الابتداع والجهل، حتى صار التصوف عندهم مخرقة وألعابا بهلوانية، أول من يتبرأ منها شيوخ الطريقة التى ينتسبون إليها، قبل غيرهم.

فمثل هؤلاء يجب الضرب على أيديهم وتنزيه التصوف عن ترهاتهم وأباطيلهم التى كثيراً ما اتخذ منها أعداء الدين، سببا للطعن فيه، ولمزه بما شاءوا. والدين من هؤلاء وأعمالهم براء، والتصوف كذلك. وللكلام فى إصلاح التصوف وتهذيبه، مجال آخر، لا يسع المقام له الآن. فلنكتف بهذا القدر. وشكراً لكم جميعاً مرة أخرى، والسلام.

تكريم الإسلام للمرأة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. سيدنا محمد وآله الأكرمين ورضى الله عن صحابته والتابعين.

أيها السادة: إن من بركات رمضان -وما أكثر بركاته- هذه السهرات، وهذه الندوات، وهذه الدروس والمحاضرات التى تلقى هنا وهناك. وفى كل مكان، وعلى مختلف المستويات.

إنها ظاهرة رمضانية مباركة. تزيد من روعة هذا الشهر وقدسيته. وتتناسب مع جوه وروحانيته. حيث تتهذب النفوس فيه بالصيام. وترتفع عن مستوى الشهوات وتحكم الغرائز البهيمية، إلى مستوى أشرف وأسمى، يجعلها متفتحة لقبول الحكمة والموعظة والذكرى، بعد أن تكون ضيقت على الشيطان مجاريه، بقطع مادة الشهوات عنه.

ولعل هذا سر تشريف رمضان، وتخصيصه بنزول القرآن فيه هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان. وفرض عبادة الصيام فيه، ليجتمع الجو الصالح المناسب لدراسة القرآن، والتعبد به، تلاوة وتدريسًا، وتعلما وتعليمًا. لأنه أنسب الأزمنة بتدبر آياته، وتفقه معانيه، واستجلاء حكمه وأسراره، والغوص على خبايا درره ولآلئه. حيث كان القرآن كله هدى ونوراً وحكمة، وموعظة ورحمة. ودعوة إلى الخير والبر والجود والمواساة، وإيثار رضا الله على رضا النفس والهوى والشيطان.

وهذه كلها معان أنسب بالصيام، بل هى من حكمه وأسراره، فلا عجب أن كان شهر رمضان شهر القرآن.

فإن من المسلم به أن من رق شعوره، وتهذب حسه، وتحرر من ربقة شهواته وهواه. يكون أقرب إلى الصواب، وأنفذ إلى الحقيقة، ممن استعبدته شهواته، وتحكمت فيه أهواؤه. وإلى هذا يشير قوله تعالى: **﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [ص: ٢٦] وقوله سبحانه: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾**

[الجاثية: ٢٣]

فعلى قدر التهيؤ الذاتى، والتخلى عن الأهواء والشهوات، وعلى قدر التحلى بالمعانى التى يرمز إليها الصيام. يكون الاستعداد أتم للتجاوب مع روح القرآن، واستجلاء أسراره، والتأثر بهديه وأخلاقه.

وهو استعداد خاص، فوق الاستعداد العادى، لإدراك مدلولات الألفاظ ومقتضياتها، عن طريق الوضع والتركيب والإسناد. فهذا استعداد يتوفر فى كل من له إلمام باللغة العربية ومعانيها وقواعدها. ولذلك لا أعنى هنا هذا الاستعداد العادى العام، ولكنى أعنى وأقصد ما وراء هذه المدلولات الوضعية، مما يكون مرجعه إلى الموهبة والاستعداد الخاص ولذلك تجد العلماء يتفاوتون ويختلفون فى تفسير القرآن. كل حسب مشربه وذوقه واستعداده الخاص به. وتجد منهم من يستخرج من الآية الواحدة، ما يدهشك، وتقضى منه العجب، من حكم ولطائف وفوائد وأسرار، لا يمكن أن يرد بحال إلى العلم بمدلولات اللغة، وعلوم اللسان لأنها معان خارجة عن نطاق الوضع والإسناد. خذ مثلاً: الفاتحة، وارجع إلى ما قيل فيها، وما كتب حولها وما استخرج منها من علوم وأسرار، حتى لقد كتب فيها وحدها مجلدات(١).

فهذه اللطائف أو الفوائد أو النكت، كما يحلو لكل شخص أن يسميها، إنما منشؤها هذا الاستعداد الخاص، يهبه الله لمن يشاء من عباده. نتيجة صقل النفس وتهذيبها، بتقوى الله سبحانه. مصداقًا لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾** [الأنفال: ٢٩] ويضيف السادة الصوفية، هنا آية أخرى فى معناها. وهى قوله تعالى: [البقرة: ٢٨٢] **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ(٢) وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾** ولعل هذا ما عناه الإمام مالك رحمه الله بقوله: ليس العلم عن كثرة الرواية، وإنما العلم نور يقذفه الله فى القلوب. ويشهد له: أن الله تعالى وصف الكفار بالصمم والبكم والعمى فى غير آية، وجعلهم كالأنعام، بل أضل سبيلا. حيث حال كفرهم وعنادهم دون نفوذ الحق إلى قلوبهم، حتى قالوا عن أنفسهم **﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾** [البقرة: ٨٨] **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾** [فصلت: ٥] الآية. فكانوا لعدم انتفاعهم بحواسهم فى معرفة الحق، والاهتداء إليه، كالعادمين لها. كما قال سبحانه: **﴿فَإِنَّهَا لَا**

(١) ولقد قرأ تفسيرها طول شهر رمضان، مولانا الأستاذ الإمام الوالد رضى الله عنه، فأتى بما أدهش الألباب، من الفوائد وأسرار الكتاب.

(٢) والعطف هنا، عطف مسبب على سبب.

تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] والمقصود أن شهر رمضان بروحانيته وجوّه الخاص، أنسب بدراسة القرآن . ولهذا كان جبريل عليه السلام، يخصه بمدارسة النبى ﷺ القرآن فيه . ففى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان، حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن . وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن . فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

ومن أجل ذلك كان السلف الصالح إذا دخل شهر رمضان، قصروا عبادتهم فيه، على تلاوة القرآن . فكان سفيان الثورى رحمه الله إذا دخل شهر رمضان، ترك كل عبادة كان يشتغل بها، واقتصر على تلاوة القرآن . وكان ابن شهاب الزهرى يقول : إذا دخل شهر رمضان إنما هو إطعام الطعام، وتلاوة القرآن . وكان الإمام الشافعى يختم فى رمضان ستين ختمة، عدا الذى يقرأ فى الصلاة . وروى عن أبى حنيفة مثل هذا . وإذا كان هذا اداب سلفنا الصالح، فما أحرانا نحن باتباعهم، والاهتداء بهديهم .

ولذلك فإن المسلم يسره كثيراً أن يرى مثل هذه الدراسات، تكثر فى رمضان، فى المسجد والإذاعة والتلفزة والنادى والمدرسة . وإذ المقصود هو التذكير وإحياء هذا الشهر بما يقرب إلى الله، ويدل عليه ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وقد اجتمعنا الليلة – أيها السادة – للكلام عن المرأة فى الإسلام . كما اقترحه منظمو[١] هذا الاجتماع . جزاهم الله وسائر العاملين، على تنظيم هذه الاجتماعات المفيدة، خير الجزاء .

إن الحديث عن المرأة فى الإسلام، أو عن حقوق المرأة فى الإسلام، أو مكانة المرأة المسلمة فى المجتمع، أو المرأة المسلمة عبر التاريخ، وما إلى هذه العناوين التى كثيراً ما تتردد على الألسن والتى كتب عنها، وقيل فيها الشىء الكثير . ومنذ زمن ليس بالقصير أى منذ احتك الشرق بالغرب إلى الآن، هو فى الواقع حديث رغم ما كتب عنه، وما قيل فيه، محتفظ بجديته وأهميته . ولا يزال الميدان واسعاً أمام الخائض فيه، بل فى حاجة إلى المزيد من العناية به، ونشره على نطاق واسع .

تتجدد دواعى الكلام فيه، أمام سيل من الاتهامات المغرضة، والادعاءات الملفقة التى

(١) هم رجال جمعية الأمل بطنجة .

يحاول بها أعداء الإسلام وخصومه، التأثير بها على شبابنا وناشئتنا. خصوصًا المرأة المعاصرة، والفتاة المتعلمة. ليتوصلوا عن طريق هذه الاتهامات إلى تصوير الإسلام، فى نظر ناشئتنا وجيلنا بأنه دين جمود وتحجير، وعامل من عوامل تأخر المسلمين ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥].

والمؤسف حقًا أن يغتر بمثل هذه الدعاوى الباطلة، كثير من شبابنا نتيجة جهلهم بالإسلام وتعاليمه، وجهلهم بتاريخه وحضارته. فتجد الكثير منهم يعتقد صدق ما تلقاه، أو ما قرأه عن أعداء الإسلام، فى حق المرأة المسلمة، وظلم الإسلام لها، وحرمانها من حقوقها الطبيعية فى الحياة والعيش الكريم. وأن المرأة المسلمة تعامل كمخلوق أقل شأنا من الرجل، بل لا حق لها إطلاقًا فى التمتع بمتع الحياة. وأن الإسلام قد حكم عليها بالسجن المؤبد، و من ثم حرمها حق التعلم والتصرف فى شئونها، ومنعها من أن تسهم بنشاط فى تكوين مجتمعها، وأن تكون عضوًا صالحًا فيه.

وأعجب من هذا، وأشد أسفًا: أنهم ينظرون إلى تعاليم الإسلام فى حق المرأة -وكلها تعاليم ترفع من شأنها وقيمتها، وتحوطها بهالة من التقدير والإكبار- ينظرون إليها على عكس ما أريد منها، تحت تأثير مفاتن المرأة الغربية، ومغريات تبرجها وانحلالها. واعتبار ذلك منها تحضرًا وتمدنا، كأن سر الرقى والتمدن: هو أن تفقد المرأة حشمتها، وتعرى جسمها، وتكشف عن فخذيها. وتحضر حفلات الرقص، وتبالغ فى الزينة، وتصادق من تشاء، وتختلى بمن تشاء. وتثور على أعراف الحياء والعفاف، وتهجر بيتها لتزاحم الرجال فى الشوارع ذهابًا وجيئة، وفى قاعات السينما، وعلى شواطىء البحار. وتتفنن فى الأزياء المزرية وغير ذلك مما لا يعد من المدنية، والحضارة الصحيحة، والرقى والتقدم فى قليل أو كثير. وهؤلاء عقلاء أوربا وأمريكا، أخذوا يضجون مما وصلت إليه المرأة الغربية، من انحراف وخلاعة وانحلال. ولكن شبابنا -وأعنى المتطرفين منهم والمفتونين بمظاهر المرأة الغربية بالطبع- لا يقيسون الحضارة إلا بمقياس هذه المظاهر الجوفاء. أما أن يقيسوها بمقياسها الصحيح، مقياس العلم والتسابق فى ميادين المعرفة والفضيلة، ويعمدوا إلى التفريق بين ما هو من جوهر المدنية ولبابها، وبين ما هو من قشرها وتمويهاتها، فهذا أبعد ما يكونون عنه.

فإن كان هؤلاء يعيبون على الإسلام أنه صان المرأة عن الابتذال، وحرم عليها الاختلاء بمن لا يحل لها من الرجال. والتبرج وإثارة غرائز الشهوة من الرجال، وتعرية جسمها، وإبداء مفاتنها. وبالجملة: حرم عليها كل ما يغرى بها، ويكون مثار فتنة الرجال بها. إن كانوا يعيبون عليه هذا، فأكرم بما يعيبونه عليه!! وأجمل بما ينقمونه منه!!

فإن الإسلام من صفاته: أنه دين الحياء والوقار، والعفة والحشمة والطهر والعفاف، والتعقل والحكمة. والحفاظ على الكرامة الإنسانية، والمقومات البشرية التى بها يتميز الإنسان عن الحيوان.

ولن يرضى الإسلام بحال لأتباعه أن ينحدروا وراء هذه المغريات إلى الهوة التى انحدرت إليها أمثال عشيقة «سارتر» حين قالت: إن الزنا أمر عادى، لا معنى لاستقباحه واستهجانه. وأمثال بعض القوانين الحديثة، حين اعتبرته أمرًا لا ضرر فيه إذا خلا عن عنصر الإكراه، ووقع باتفاق الطرفين، وتبعًا لذلك اعترفت بشرعية ابن الزنا وأعطته حقوق الابن الشرعى، مما يعطى الزنا صفة المشروعية!! فهذا طبعًا لن يرضى عنه الإسلام بحال.

أما إن كانوا يعنون أن الإسلام ظلم المرأة فى حقوقها المشروعة وحجر عليها التعلم، أو منعها من حق مباشرة ما لها، والتصرف فيه كما يحلو لها. أو استهدف مما أحاطها به من صون وتشريف وتكريم، ظلمها أو اتهامها. فهذا أبعد ما يكون عن الواقع والمنطق والتاريخ. ولا يعدو أن يكون تشويها للحقيقة والتاريخ، وظلما للإسلام، فيما سبق إليه المدنية الحديثة من ضمان لحقوق المرأة المشروعة، كما يشهد بذلك التاريخ، والمنصفون من الأوروبيين. وها هو ذا القرآن أمامنا، فتعال نستعرض بعض آياته المتعلقة بالمرأة لنرى منها أى حق أعطى الإسلام للمرأة؟ وأى مكانة أحلها فيها؟ وكيف اعتبرها شريكة الرجل وعماد حياته؟ وعليهما معا يقوم نظام الحياة، وتتحقق معانى الإنسانية. فلا غنى للمرأة عن الرجل، ولا غنى للرجل عن المرأة. وكيف جعلها شقيقة الرجل فى الأحكام، وفى كل شىء إلا ما كان راجعًا لطبيعة كل منهما خلقة، وإعدادًا للوظائف التى ميز الله بها الرجل عن المرأة ليقوم نظام الكون على الوجه الأكمل. وهو أمر لا مدخل للإسلام فيه. فهى فروق فرضتها طبيعة المرأة ذاتها، فجاءت وفق النظام الذى خلق الله عليه كلا من الرجل والمرأة. حتى يكون دينا متمشيا مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وتلك

من محاسن الإسلام، وسر من أسرار تعاليمه الخالدة.

استعراض بعض الآيات الواردة فى المرأة

وإذا أردنا استعراض جميع الآيات التى تعرضت للمرأة، فإننا نجدها من الكثرة بحيث لا يسع لها وقتنا هذا، ولا يكفى فيها محاضرة واحدة. فهى من الكثرة، بحيث تكون جزءاً مهما من القرآن. وقد تتبعها محمد صديق حسن خان ملك بهوبال، فجمع منها ومن الأحاديث الواردة فى المرأة، كتاباً خاصاً سماه «حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله فى النسوة» وهو مطبوع فى الآستانة فى حجم متوسط بلغت أوراقه ٤٢٤ صحيفة، وتقع فهرسته وحدها فى ٣٠ صفحة ومن هنا ندرك أهمية المرأة فى الإسلام، إذ كانت تحتل هذا الحيز المهم من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وإذا كان لا يمكننا استعراض جميعها فى هذه المحاضرة كما قلنا، فلا أقل من استعراض بعضها، والوقوف عنده قليلاً.

وهى آيات موزعة فى كثير من سور القرآن، فمنها آيات تبين مكانة المرأة فى الحياة، وأنها كالرجل فى كل شىء، ومنهما معا كان المجتمع البشرى. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣] قال تعالى: خلقناكم من ذكر وأنثى، فلا فرق أبداً بين الذكر والأنثى فى حقيقة الإنسانية، ولا فى الحكمة من وجود الإنسان على هذه البسيطة، ولا فى الأعمال التى يقوم بها الإنسان. ولا فضل للرجل على المرأة والعكس، إلا بالتقوى والعمل الصالح. إن أكرمكم عند الله اتقاكم، فالخطاب لكل من الرجل والمرأة على سواء.

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١].

فتقرر بهذه الآية أن المرأة بشر وأنه لا غنى للمجتمع الإنسانى عن كل من الرجل والمرأة فعليهما معًا يقوم نظام الكون ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٩] قرر هذا رداً على من كانوا يزعمون أن المرأة من الحيوان الأعجم، أو من الشيطان، لا من نوع الإنسان بحال. فقد كان هناك كثير من المجتمعات، دأبت على

اعتبار أن المرأة ليست من نوع الإنسان، حتى قرر أحد المجامع فى روما: أنها حيوان نجس، لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور، لمنعها من الكلام والضحك باعتبارها أحبولة الشيطان. واعتبرت فى فرنسا مدة: أنها حيوان، وليست بإنسان حتى سنة ٥٨٦ م حيث قرروا إنصافها باعتبارها إنسانًا لا حيوانًا ولا شيطانا، ولكنها خلقت لخدمة الرجل.

ويقول العالم الفرنسى «هنرى ماريون» وهو من الرجال المختصين فى تربية البنات بفرنسا، فى كتابه عن المرأة. ترجمة إميل زيدان: إن مجمع ماكون فى القرن الخامس بحث فى: هل للمرأة نفس كالرجل؟ أولاً؟ ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالإيجاب، إلا فيما يخص مريم العذراء.

فوازن هذا بما ذكر عنها القرآن، ودع الأفاكين يقولون بعد ما شاءوا.

وقال تعالى -فى معرض الامتنان على الإنسان، حيث خلقه من ذكر وأنثى، ليكمل كل منهما الآخر، وبهما معا تتم سعادة كل منهما، فيرتاح الرجل للمرأة، وترتاح المرأة للرجل، باعتبار أن كلا منهما متمم لمعنى إنسانية الآخر، وسبب سعادته وغبطته - **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [الروم: ٢١] وهكذا جعل الإسلام من الزواج، سبب سعادة وتآلف وغبطة واطمئنان. بعد أن كان الزواج فى كثير من قبائل البدو، وحتى فى الشعوب المتحضرة، ضربًا من استرقاق الرّجال للنساء. قال قاسم أمين فى كتابه «المرأة الجديدة»: ترتب على دخول المرأة فى العائلة، حرمانها من استقلالها.

لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمان والهنود والصينيين والعرب، مالكًا لزوجته. كان يملكها كما يملك الرقيق، بطريق البيع والشراء بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء. وهذا أمر يعرفه كل مطلع على التاريخ الرومانى، يشترى الرجل زوجته من أبيها، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها. ويجوز له أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر اهـ.

ولم يكن الزواج عند عرب الجاهلية بأحسن حالاً من هذا، حيث كانت الزوجة تعتبر إرثا، تورث فى جملة ما يورث عن الرجل وللابن الحق فى أن يمسك امرأة أبيه لنفسه أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت، فيذهب مالها.

قال السدى: إن الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو قريبه، فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارثه فألقى عليها ثوبه، فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه - أى موروثه- أو ينكحها لغيره، فيأخذ مهرها. هذا بينما اعتبرت هذه الآية الزواج سكونًا نفسيًا، واطمئنانا روحيًا، يربط أحد الزوجين بالآخر، برباط المحبة والمودة والرحمة. وهذا سر تسمية كل من الرجل والمرأة زوجًا، مع أنه شخص واحد، وهى كذلك. والزوج يعنى الشفع والإثنينية، ولكن القوم غفلوا عن معنى التسمية، وجعلوا من الزواج عبودية للمرأة، واسترقاقًا وتجارة بكرامتها.

وقال تعالى: ردًا على اعتقاد العرب وما كانوا عليه من كراهية للبنت، واعتبارها سبة وعارًا. وتسفيها لآرائهم وعاداتهم التى كانت تجعل الواحد منهم إذا بشر بولادة أنثى، توارى عن القوم، واختفى عن أنظارهم خجلاً مما لحقه من عار ولادة الأنثى على فراشه وفى بيته - ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾

[النحل: ٥٨، ٥٩]

ولهذه الكراهية كان بعضهم يئد بناته أحياء، والوأد وإن لم يكن عامًا عند جميعهم، كان فى نظرهم غير محظور، ولا داعى إلى الإنكار على فاعله. هذا إذا لم نسلم ما ذكره الهيثم بن عدى، من أنه كان مستعملاً فى قبائل العرب كلها وأن نسبة الوائدين تصل إلى واحد من عشرة. وكانت أسباب الوأد متعددة عندهم:

فمنهم من كانوا يئدون بناتهم مخافة لحوق العار بهم، إذا كبر بناتهم فسبين أو استرقن أن أتين بفاحشة تلحق العار بهم.

ومنهم من كانوا يئدونهن مع الأولاد، مخافة الفقر.

ومنهم من كانوا يئدون المعيبات منهن فقط كالبرصاء والعرجاء والسوداء.

ومنهم من كانوا يئدون تقربًا إلى الله فى زعمهم ببناتهم، لاعتقادهم أن الملائكة بنات الله، فكانوا يتقربون إليه، بما هو من نوع بناته، تعالى الله عن جهلهم وكانوا أحيانًا يئدونهن فى صورة من القسوة والوحشية، إذا ما حبس الأب عذر عن وأد بنته وهى

صغيرة، أمهلها إلى أن تكبر وتعقل، ثم يعمد إلى دفنها وهى على قيد الحياة، أو يلقى بها من شاهق.

فجاء الإسلام وحرر المرأة من هذا الظلم الفاحش، وأثبت أن قتلها خطأ كبير، وإثم عظيم. وأن وائدها مسئول عن الذنب الذى من أجله وأد ابنته. فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١][(١)].

وقرر فى عدة آيات، استواء الرجل والمرأة فى الأعمال وأحكام الشرع. فقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[غافر: ٤٠]

وقال سبحانه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أى فهم سواء فى المجازاة. وأخرج الترمذى والحاكم عن أم سلمة رضى الله عنها: أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء، فأنزل هذه الآية، تطييبًا لنفوسهن، وإعلامًا بأنهن والرجال سواء فى الأعمال والجزاء عليها.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وورد فى سبب نزول هذه

---

(١) هذه الآية، خطاب لذوى اليسار الذين كانوا يئدون أولادهم خشية الفقر. وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] خطاب للفقراء. ولذا لم يقل هنا: ﴿ إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا ﴾. لأن الفقر خفف الإثم.

الآية، قول النساء: لو كان فينا خير لذكرنا. كما قالت أم سلمة فى الآية السابقة، أعنى آية آل عمران.

ولعل فى هذا القدر من الآيات التى ذكرنا ما يكفى للتدليل على المكانة التى وضع الإسلام فيها المرأة ويلقم حجراً أولئك الأفاكين المتخرصين المتقولين على الإسلام ما شاءت لهم أحقادهم وأغراضهم الفاسدة.

استعراض بعض الأحاديث الواردة عن المرأة

ولا بأس أن نتبع هذا القدر من الآيات، ببعض الأحاديث النبوية التى تحث على اكرام المرأة واحترامها ومعاملتها بما يليق، بمكانتها ووظيفتها فى المجتمع. حتى إذا أتينا على بعضها، انتقلنا إلى ذكر بعض الحقوق التى ضمنها الإسلام للمرأة. وما قلنا عن الآيات، نقول مثله عن الأحاديث. فهى أيضًا كثيرة جداً، ولكن مع ذلك نذكر بعضًا منها تتميما لإعطاء نظرة عامة عما حظيت به المرأة فى القرآن والسنة.

فمن هذه الأحاديث توصيته ﷺ بالمرأة والمبالغة فى شأنها فى خطبة الوداع، تلك الخطبة التى تعرفون أهميتها فى الإسلام. إذ كانت آخر خطبة منه ﷺ فى جمع عام. واقترن بها إكمال الدين، وإتمام نعمة الله على المسلمين.

وكان النبى ﷺ فيها كالناعى نفسه لأمته، اشعاراً بانتهاء مهمة الرسالة التى بعثه الله من أجلها. فضمن ﷺ هذه الخطبة وصايا هامة، وقرر فيها ما ضمنه الإسلام لأتباعه من حقوق، تعتبر حجر الأساس فى تكوين المجتمع الإسلامى الصالح كما أراده الله عز وجل. فى هذه الخطبة بالذات، قال ﷺ -حسب رواية عمرو بن الأحوص «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوانٍ[1] عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» إلى أن يقول «ألا وإن لكم على نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن» الحديث.

وقال ﷺ «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضى آخر» رواه مسلم.

---

(١) بكسرتين جمع عانية أى أسيرة. والتنوين هنا تنوين العوض، مثل غواش. ومن قرأ: عوان بضمتين، فقد لحن، وغير المعنى، إذ العوان الوسط بين أمرين. قال تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

والفرك: البغض والكراهية. وقال عليه الصلاة والسلام «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» رواه البخارى ومسلم، وفى رواية لمسلم «إن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها» ومعنى الحديث: أن فى طبع المرأة عوجًا وصلابة طبع، فهى كالضلع فى العوج وعدم الاستقامة. فيجب على الرجل ألا يحاول تقويم هذا الإعوجاج منها بالقوة، أو يجاريها فيه. بل يعدل إلى الحسنى ويريد بها خيراً. فإنه إذ ذاك فقط يمكنه أن ينتفع بها، كما جاء فى حديث آخر «فدارها تعش بها» نعم إن كان اعوجاجها خارجًا عن نطاق الفطرة والطبيعة، فلا مانع من تأديبها ومقاومتها، لرد انحرافها وزيفها. وقال ﷺ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر، ورمز له السيوطى فى الجامع الصغير بعلامة الصحة. وقال ﷺ لعمر حين سأله عن آية الوعيد على كنز الذهب والفضة «ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[١] رواه أبو داود وغيره. وقال عليه الصلاة والسلام «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه» رواه مسلم، ولفظ الترمذى «دخلت الجنة أنا وهو كهاتين» وقال أيضًا «ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة» رواه ابن ماجه. وفى حديث آخر «ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبن أو يمتن كن له حجاباً من النار» وفى حديث آخر «من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن» والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً، وسيأتى بعضها عند الكلام على حقوق المرأة فى الإسلام. أفيجوز أن يدعى بعد هذا مدع أن المرأة مهضومة الحق فى الإسلام؟ أو أن الإسلام أهانها؟ أو نحو ذلك مما اعتادوا التشويه به؟ وهى تحتل من مصدريه الأولين هذه المكانة؟!! سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم!!

والآن وقد أعطينا نظرة عامة مجملة عن مكانة المرأة فى الإسلام، وكيف حررها من المظالم التى كانت ترزح تحت نيرها سواء عند البدو، أو الأمم الحضرية، وكيف كان ينظر إليها؟ ويختصم القوم ويتجادلون فى حقيقتها: أهى حقًا من نوع الإنسان؟ أم من نوع آخر غير الإنسان؟ وكيف قررت بعض مجامع أوربا أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود؟

---

(١) فى رواية «حفظته فى نفسها وماله».

وكيف كان جواب بعض المجامع الأخرى بأن المرأة لا نفس لها كالرجل إلا ما كان من مريم العذراء، خصوصية لها وحدها دون النساء؟!! وكيف أن أحسن إنصاف لها كان فى فرنسا حين اعتبرت إنسانا لا حيوانًا، إلا أنها خلقت لخدمة الرجل؟!!، وكيف كانت تباع وتشترى عن طريق الزواج؟ وتورث فى جملة ما يورث من متاع؟ وتحرم كل تصرف فى شئونها ومالها؟ وكيف كان آخرون يتلقون البشارة بولادتها ويعمدون إلى وأدها؟!!

الآن وقد عرفنا كل هذا، فلا بأس أن ننتقل إلى ما ضمن لها الإسلام من حقوق، وما أعطاها من حرية التصرف المطلق فى نفسها ومالها. وكيف اعتبرها مسئولة فى مجتمعها ربيتها وعن أولادها، وكيف عاملها على أساس المساواة التامة بينها وبين الرجل إلا فى جزئيات ترجع إلى اعتبارات خاصة، دون أن يكون فى ذلك مساس بحقها، أو إهانة لقدرها، أو نقص من إنسانيتها.

اعطى الإسلام للمرأة حق اختيار زوجها بكر كانت أم يثبا

وأول هذه الحقوق الخاصة، بعد تلك الحقوق العامة التى تقدمت: حق اختيار زوجها وشريكها فى الحياة، وقرينها إلى الأبد. أو بعبارة: تحويل زواجها من أن يكون استعباداً واستغلالاً وإكراها، إلى نعمة وحرية واستمتاع ومودة ورحمة. إذ جعل الإسلام من الزواج عقداً دينيًا مقدسًا، لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسى، وجعله يستهدف إلى المودة والرحمة عن طريق المعاشرة بالمعروف والإحسان. كما أرشدت إليه آية﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم: ٢١] وآية ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وآية ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩].

وإذ كان الإسلام قد اعتبر الزواج، مودة ورحمة وسبب سكون نفس كل من الزوجين إلى الآخر، كان حتمًا إعطاء المرأة حق اختيارها لهذا الزوج الذى يجب أن تسكن إليه، ويسكن هو إليها. ومن أجل ذلك منع الأولياء حتى الآباء من الاستبداد فى تزويج بناتهم ممن لا يرضين. مع العلم بأن كل الأمم والدول كانت تعطى الرجل حق إكراه بنته وقريبته على الزواج ممن يحب هو، لا ممن تحب هى.

فأعلن ﷺ لأول مرة فى التاريخ حق المرأة فى اختيار عشيرها ورفيقها فى الحياة،

وأبطل كل إكراه من جانب الأب أو الولى عليها.

أخرج أهل السنن إلا مسلمًا عن خنساء بنت خدام الأنصارية: أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك فأتت رسول الله ﷺ، فرد نكاحها.

وأخرج أحمد والنسائى من حديث بريدة: أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه، ليرفع بى خسيسته – ليرفع من شأنه– قال: فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها. فقالت: قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء: أنه ليس إلى الآباء من الأمر شىء، تعنى أن ليس لهم إكراه بناتهم على التزوج ممن لا يرضين.

وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور الذى أخرجه الجماعة إلا البخارى «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صماتها» أى يكتفى بسكوتها لحيائها، ويعتبر السكوت منها رضا وموافقة. لأن العادة تقضى أنها ما سكتت إلا عن رضا. فإن لم ترض واعترضت، بطل النكاح، وإلا لم يكن لاستئذانها فائدة.

قال ابن القيم فى الهدى –فى تقرير حق البنت فى اختيار زوجها –: إن البالغة العاقلة الرشيدة، لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من مالها إلا برضاها، ولا يجبرها على إخراج اليسير منه، بدون إذنها فكيف يجوز أن يخرج نفسها منها بدون رضاها؟!! ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها، أسهل عليها من تزويجها ممن لا تختاره. إلى أن قال: فلو لم تأت السنة الصريحة بهذا القول، لكان القياس الصحيح وقواعد الشريعة لا تقتضى غيره. ولأجل هذا كان مذهب مالك –رحمه الله– فى إعطاء الأب حق إجبار بنته البكر، ضعيفًا مخالفًا لصريح الأحاديث السابقة. ولقد أحسنت مدونة الأحوال الشخصية بتقرير هذا الحق، للبنت فى التشريع المغربى.

وبعد أن أعطى المرأة حق اختيار زوجها، ساوى بينها وبين الرجل فى اقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف، مع جعل الرياسة على البيت، والقيام على الشئون التى يقتضيها الزواج، بيد الزوج؛ لأنه أقدر على النفقة والحماية لحقوقها وحقوق الأولاد، بحكم طبيعته ومؤهلاته الفطرية التى خلقه الله عليها. قال تعالى: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فأبطل بهذه الآية الكريمة جميع النظريات والدعاوى والعادات والتقاليد التى كانت تجعل الحقوق كلها فى جانب الرجل القوى، دون أن يكون للمرأة الضعيفة أى حق معه فى نفسها أو مالها أو ولدها.

قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير هذه الآية: هذه كلمة جليلة جداً، جمعت على إيجازها ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير. فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله: ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وهذه الدرجة مفسرة بقوله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء: ٣٤] وقد أحال فى معرفة مالهن وما عليهن، على المعروف بين الناس فى معاشراتهم ومعاملاتهم لأهليهم. وعرف الناس، تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم. فهذه الآية ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨] تعطى الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجه فى جميع الشئون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر، تذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه ومقابله. ولهذا قال ابن عباس: إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى، لهذه الآية. فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله، إن لم يكن مثله فى شخصه، فهو مثله فى جنسه. فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل. فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين فى الآخر، ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه فى مصالحه، لا سيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام بحقوقه. ثم نقل عن الشيخ محمد عبده: أن هذه الدرجة التى رفع النساء إليها فى الإسلام لم يرفعن إليها فى دين سابق، ولا شريعة من الشرائع. بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده. حتى الأمم الأوربية التى كان من تقدمها فى الحضارة عنايتها بالمرأة وتربيتها وتعليمها، لا تزال قوانين بعضها كفرنسا تمنع المرأة من حق التصرف فى مالها(١) بدون إذن زوجها، وغير

---

(١) كتب هنا صاحب المحاضرة، هذه الجملة: قال الكاتب الهندى همايون كبير فى كتاب «العلم والديمقراطية والإسلام» ترجمة نوية بمطبعة دار الهلال صـ٢٥: إن الدعوة إلى الديمقراطية، قد وجدت تعبيراً حيا عنها، فى نظم جديدة، استحدثها الإسلام. وكان أول هذه النظم وأبرزها، هو الاعتراف للمرأة بالشخصية القانونية. فجعل لها الحق فى التصرف والتملك.. إلى أن قال: وهذا الاستقلال الاقتصادى، لم تكن تستمتع به المرأة قبل الإسلام. وحرمانها حق التمتع بالتصرف والتملك، لم يجعل لها كياناً فى نظر القانون المدنى. وصحيح أن الحقوق التى خولت للنساء المسلمات، لم تكن فى كل الجوانب ذات الحقوق المخولة للرجال. ولكنها على أى حال كانت الضربة الأولى، قضت على الامتيازات التى كان يستأثر بها الرجل. والاعتراف بمركزها الاقتصادى يمثل نصراً جديداً للديمقراطية، فى مجال المساواة بين الجنسين اهـ وما أفاده كلامه من وجود فوارق بين الحقوق المخولة للرجل والمرأة فى الإسلام، سبق ويأتى الجواب عنه.

ذلك من الحقوق التى منحتها إياها الشريعة الإسلامية، منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف. وقد كان النساء فى أوربا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء، كما كن فى عهد الجاهلية عند العرب، أو أسوأ حالاً.

وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا، فى إعلاء شأن المرأة يفخرون علينا. بل يرموننا بالهمجية فى معاملة النساء. ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام: أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. ثم حكى قصة السائح الإفرنجى الذى زاره فى الأزهر، وإذا به يرى امرأة تمر فى مسجد الأزهر، فبهت، وقال: ما هذا؟ امرأة تدخل الجامع؟ فقال له محمد عبده: وما وجه الغرابة فى ذلك؟ قال: اننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح، وليس عليهن عبادة. قال عبده معلقًا على الحكاية: فانظر إلى جهل هؤلاء الناس بالإسلام، حتى مثل هذا الرجل الذى هو رئيس لجمعية كبيرة، فما بالكم بعامتهم؟!!

والمهم أن هذه الدرجة التى جعلها الله للرجل على المرأة، فسرتها آية ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء: ٣٤] وبسبب هذه القوامة كان على الرجل واجب النفقة على زوجته وأولاده، وسهره على كل ما فيه راحتها وراحة أسرته جمعاء. لأنه أقدر على النفقة والتصرف فى المكاسب منها بحكم الواقع والاستعداد الفطرى. ولذلك أعفيت المرأة من كل نفقة، حتى المهر يدفعه الرجل إليها، ولا تكلف بشىء من واجبات النفقة والكسوة والسكن حتى ولو كانت غنية ثرية.

وهذا هو الذى يتفق مع طبيعة كل من الرجل والمرأة، وما منا من يجهل المتاعب التى يتعرض لها الرجل فى سبيل الحصول على وسائل العيش. فتراه يكدح ويقتحهم كل الصعاب، ويتعاطى أعمالاً وخدمات، ندرك بالضرورة عجز المرأة عنها، وعدم لياقة إقحام المرأة فى أعمال لا تتفق بحال مع طبيعة أنوثتها ونعومتها. لا سيما إذا كانت أعمالاً مرهقة، كعمل البناء والخدمة فى الأوراش وما إليها. فضلاً عن تعرض المرأة للحمل والولادة، واضطرارها إلى التوقف عن أعمالها اثناء فترات الولادة وما يتبعها من واجبات الرضاع والعناية بالوليد. إلى ما يجر عليها الاندفاع وراء الكسب، من مضايقات لا تشرفها بحال، ولا تليق بها كربة بيت، وذات زوج.

إذن فالطبيعة التى أوجدها الله عليها تقتضى اعفاءها من مسئولية النفقة حتى على

نفسها، فكيف على زوجها وأولادها؟ وإذا كان الأمر كذلك، تعين هذا الحق على الرجل وحده. وبموجبه يكون له حق الإشراف عليها، وحق حمايتها، والسهر على مصالحها، وذلك هو معنى الدرجة فى الآية.

لم كان المهر على الرجل دون المرأة؟

وهنا تدعونا المناسبة إلى الكلام على سر جعل المهر على الرجل دون المرأة، حيث يصور بعضهم دفع المهر، بعمل يتنافى مع كرامة المرأة. لأن الغربيين لا يدفعون مهراً لأزواجهم، بل المرأة هى التى تدفع المهر لزوجها. ونحن نقول لهؤلاء: ما دام هناك مهر، واعتباره واسطة فى الزواج، وعربونا على اتمام عقد الزوجية. فالمهر هو المهر، سواء دفعته المرأة للرجل، أو دفعه الرجل. فما يقال عليه فى جانب الرجل، يقال فى جانب المرأة سواء. فما بالكم لا تستقبحونه من جانب المرأة وتستقبحونه من جانب الرجل؟ وما بالكم تستقبحونه من جانب المسلمين ولا تستقبحونه من جانب الأوربيين المسيحيين؟!! أليس هذا مجرد تحكم وهوى وتعصب بارد؟!! ثم نرجع إلى أنفسنا لنتساءل: أى الأمرين أنسب بالشهامة والمصلحة؟ أيكلف الرجل بدفعه وهو أقدر على الحصول عليه بحكم طبيعته كما سبق؟ أم تكلف المرأة بدفعه وقد لا تجد وسيلة للحصول عليه إذا كانت فقيرة أو يتيمة، إلا وسيلة لا يرضى عنها ذو شهامة؟

أما الإسلام فقد فرض المهر على الزوج، لأنه فرض عليه كل تكاليف الزواج وتبعاته. ثم هو مع ذلك يرمى إلى حكمة تكريم المرأة بجعلها مطلوبة لا طالبة، وأن تطيب نفسها برياسة الزوج عليها. وأن تستعين به على مؤن زواجها وما يلزمها من تجهيز وأدوات التجمل والزينة لاستقبال زوجها. والعادة جارية بإعطاء هدايا زائدة عن الصداق، زيادة فى تأكيد المحبة، والرغبة فى المرأة.

وإذا تأملنا لفظ الآية ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ [النساء: ٤] وجدنا أن الصداق يعطى نحلة، والنحلة هى العطاء دون مقابل. قال صاحب المنار فى تفسير الآية: وينبغى أن يلاحظ فى هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذى لاحظه الفقهاء من أن الصداق والمهر بمعنى العوض عن البضع والثمن له. كلا إن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه، أو جاريته. ولذلك قال: نحلة، فالذى ينبغى أن يلاحظ هو أن هذا العطاء آية من آيات المحبة، وصلة القربى، وتوثيق عرى المودة والرحمة اهـ.

والمهم هو فرض الصداق وإعفاء المرأة منه، وعلله بعد بما تشاء.

وما دمنا فى الكلام على الزواج، ينبغى أن نشير إلى ما قد يعاب على الإسلام من إباحته تعدد الزوجات، لأنه من أكبر الأمور التى يعيب بها الإسلام أعداؤه والجاهلون بسر تعاليمه، وحكم شرائعه. فنقول: إن تعدد الزوجات كان أمراً معمولاً به عند العرب وغيرهم من الأمم، كان فاشيا عند الرومان واليونان والأوربيين وغيرهم، وما منعه أهل أوربا إلا فى القرون الأخيرة. ولكنهم استبدلوا بتعدد الزوجات الشرعيات، السفاح واتخاذ الأخدان (الصواحب) وكان للرجل الحق فى أن يتزوج من شاء بدون حد، أو اشتراط العدل فى معاملتهن.

فلما جاء الإسلام، حصر هذا العدد فى أربع. واشترط له العدل حتى إذا خاف ألا يعدل، وجب عليه الاقتصار على واحدة ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ [النساء: ٣] ثم هو مع ذلك، لم يوجبه على الرجل، وإنما اعتبره بمثابة ضرورة من ضرورات الاجتماع، فى أحوال خاصة، يكون معها التعدد على وجه شرعى، ومضمون فيه الحق للزوجات، خيراً على كل حال من الزنا واتخاذ الإخدان سراً. كما إذا كانت المرأة مريضة، مرضاً يمنع من الاستمتاع، أو عقيما، والرجل له رغبة فى الأولاد، أو تكون حرب تخلف وراءها جيشاً من الأرامل والأيتام، فيكون من الرفق بهن إذ ذاك صون كرامتهن وعفافهن، بدلاً من أن يتركن للفاحشة والضياع، واحتراف البغاء. مع ما ينشأ عنه من أمراض ومصائب، ولا سيما فى شرع يشتد فى تحريم الزنا، والعقوبة عليه، ويسد كل الذرائع الموصلة إليه.

ثم هو مع ذلك لم يبح التعدد، إلا مع القدرة على العدل بين الزوجات. فإذا تحقق هذا العدل على الوجه الشرعى، لم يكن على المرأة ضرر فى أن يغيب عنها زوجها ليلة أو ليلتين إلى ثلاث ليال، وهى أقصى ما يمكن. يغيب عنها فى الفراش فقط، مع ضمان كل الحقوق المفروضة لها، وهى وحدها. وإذا كان التعدد يؤدى إلى مشاكل فى حياة الأسرة، فالآفة من التربية وطغيان الأنانية، أو من عدم تطبيق العدل فى معاملتهن، أما لو صحت التربية، وطبق العدل على الوجه المطلوب، فما أظنه يترتب عنه فى حد ذاته ما يكون سبب مشكل يدعو إلى منعه.

كذلك الطلاق، هو أيضاً من محاسن الإسلام. لأنه فى بعض الحالات يكون ضرورة

حتمية، إذا تعذر على الزوجين القيام بالحقوق الزوجية. فإذا لم يبح لهما الطلاق، فقد حكمنا عليهما بالشقاء المؤبد. وحكمنا على الأسرة كلها بالتعاسة، والحرمان من نعمة الاستقرار. إلى ما ينشأ عن التقيد بهذا الزواج الذى أصبح لا يحقق من حكمته شيئًا، من اندفاع الوقوع فى الزنا من كلا الطرفين.

ولذا كان من المصلحة والرحمة بكل من الزوجين فى حال تعذر إقامة حياة زوجية سعيدة، أن يعطى كل منهما فرصة يستعيد فيها تجربة الزواج من شخص آخر، ليحقق الزواج غايته وأهدافه بالنسبة لهما ولأسرتهما ومجتمعهما **﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾** [النساء: ١٣٠].

ثم هو مع ذلك غير مرغوب فيه فأبغض الحلال إلى الله الطلاق، كما فى الحديث الذى أخرجه أبو داود وغيره. وورد عن على مرفوعًا « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش » وأخرج ابن ماجة وابن حبان عن أبى موسى الأشعرى مرفوعًا كذلك « ما بال أحدكم يلعب بحدود الله يقول: قد طلقت. قد راجعت » أضف إلى ذلك أن الإسلام ليس أول من أباحه، وإنما كان مشروعًا عند كثير من الأمم، حتى أهل الكتاب. وكان غير محدود بحد. فكان يلحق النساء منه ظلم كثير، حتى تظل المرأة من جرائه معلقة لا هى مزوجة، ولا هى مطلقة. يعمد أحدهم إليها فيطلقها، فإذا قاربت إنهاء العدة ارتجعها، ثم عاد فطلقها، وهكذا دواليك. فجاء الإسلام فيه باصلاح، لم يسبق إليه. وجعل نهايته ثلاث تطليقات، ثم تحرم بعد على الرجل، حيث تكون التجربة أبانت عن عدم جدوى مثل هذا الزواج الذى وقع فيه الطلاق ثلاث مرات، دون أن ينحسم السبب الذى أدى إليه، أولاً وثانيًا وثالثًا.

وكان الغربيون يعيبونه أولاً على الإسلام، ثم اضطروا إلى إباحته. فأسرفوا فيه إسرافًا، ويكفى أن تتبعوا الصحف التى تنشر أحكام الطلاق التى تقع فى محاكم أوربا وأمريكا والأسباب التى تقع من أجلها، لتروا كيف يطلقون أحيانًا من أسباب واهية، يضحك منها العقلاء.

بيد أنه يبقى هنا سؤال، وهو: لماذا كان الطلاق بيد الزوج وحده؟ والجواب هو: أن الطلاق تبيع عقد النكاح، وهو أنما يكون بيد الرجل، لأنه أحرص على بقاء الزوجية، حيث تكلفة نفقات فى عقدها وحلها. ولأن الرجال بحكم التجربة والواقع، أقدر على

ضبط العواطف، وأثبت من النساء، وأشد صبرًا. وبعد هذا وذاك فالمرأة حين رضيت بالزواج منه، فقد رضيت مسبَّقًا بجعل الطلاق بيده، كسائر حقوق الزوج عليها.

نعم قد ينتقل إليها حق الطلاق منه بواسطة الخلع الذى يكون عندما ترغب المرأة فى الطلاق لغير ضرر يلحقها منه. أما إذا ثبت الضرر، كان لها حق الطلاق منه بغير خلع. وما عليها إلا أن ترفع أمرها إلى الحاكم، ليوقع عليه الطلاق إجبارًا. ويرى بعض العلماء أن لها حق اشتراط جعل الطلاق بيدها عند العقد، إذا قبله الزوج لقوله ﷺ «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج».

وعليه فيكون الشرع قد احتاط لجانب المرأة، حين جعل الطلاق بيد الرجل، وحيث جعل من موجبه الخلع وثبوت الضرر. فما أعدل هذه الشريعة الغراء! وما أعظم حكمتها!! وأدق نظرها!! ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠]

أثبت الإسلام للمرأة حق التصرف المطلق فى مالها

هذا ما يتعلق بحق زواجها، أما حق التصرف فى مالها، فقد أثبت الإسلام لها حق التصرف المطلق فى مالها بيعًا وشراءً وإجارة وهبة وصدقة، دون أن يكون عليها رقيب فى ذلك. بينما لا تزال المرأة الأوربية فى بعض الدول كفرنسا، مقيدة بإرادة زوجها فى جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية.

لم ترث المرأة نصف نصيب الرجل

وأعطاها حق الإرث الذى كانت محرومة منه ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾ [النساء: ٧]

وهنا يأتى تساؤل، كثيرًا ما يردده الناس، ويتخذه بعض ذوى الأغراض الفاسدة من الأجانب وأذنابهم وسيلة إلى اتهام الإسلام بظلم المرأة. وكم ألقاه بعض الأساتذة الفرنسيين على تلامذتهم. وهو: لماذا كان نصيب المرأة فى الإرث على النصف من نصيب الرجل؟ ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١].

والجواب: أنه كان على النصف، لأن الإسلام الذى ورثها بعد أن كانت محرومة من الإرث عند بعض الأمم كالعرب، أعفاها من النفقة حتى على نفسها، وجعلها على الرجل وحده. فلو أعطيت مثله والحال أن عليه تقع جميع تبعات النفقة، لكان الرجل مظلوماً ظلمًا بينا. فما بالهم لا ينظرون إلى مزية الإسلام وينصفونه حين ورثها وضمن لها حق التصرف فى مالها؟ ويأخذون أحكام الإسلام منفصلاً بعضها عن بعض؟ فلا ينظرون إلا إلى نقص ميراثها عن الرجل، ويصرفون نظرهم عن إعفائها من النفقة وجميع توابعها. مع أن القاعدة: أن جميع القوانين، ينظر إليها كمجموعة يقيد بعضها الآخر، ويشرح البعض منها البعض الآخر، ويحيل البند منها على غيره من بنودها. أما لو فعلوا، لأنصفوا البحث والحقيقة، قبل أن ينصفوا الإسلام. ثم مع هذا وذاك، إذا نظرنا إلى الواقع نجد أن نصيبها إما مساوٍ للرجل، أو يزيد عليه. فإن الرجل الذى يرث ألفين إذا تزوج تكون الألف بينه وبين زوجته وأسرته، بينما ألف المرأة يبقى لها وحدها تصرفه فى كمالياتها إذا كانت متزوجة، أو على نفسها وحدها إذا كانت غير ذات زوج. ويمكنها أن تنميه، فيصبح أضعاف نصيب الرجل الذى أذهبته النفقة. فبان من هذا أن الشرع حكيم، وتعاليمه فى غاية الانسجام مع نفسها وأهدافها، حين جعلت نصيب الرجل مثل حظ الأنثيين. ونظير هذا ما تراعيه قوانين الوظيفة العامة والخاصة حين تجعل لذى الأولاد تعويضاً يجعل مرتبه يفوق شريكه فى العمل والرتبة، نظراً لتكاليف ذى العيال. أفيقال: إن هذا من الظلم كذلك؟ أم هو أمر له ما يبرره؟ وإذا كان، فهو نفس المبرر فى إرث المرأة.

حق تعليم المرأة

وأخيراً يأتى حق تعليمها: إن الإسلام جعلها شقيقة الرجل فى الأحكام. ومن ثم أوجب عليها ما أوجب على الرجل سواء فهى مطالبة بمعرفة ما يلزمها فى دينها وبيتها ورعايتها. إذ جعلها راعية كالرجل فقال «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالرجل راع فى بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها» وكيف تكون راعية ومسئولة عن رعيتها وهى تجهل حقيقة هذه الرعاية وتوابعها؟ كما جعل لها حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١] وذاك يقتضى منها معرفة أحكام الشرع، لتعرف ما هو معروف فتأمر به،

وما هو منكر فتنهى عنه. ثم أثبت لها حق الولاية مع المؤمنين، فتدخل فيها ولاية الأخوة والتعاون والنصيحة. ومن ثم أعطاها حق إجارة من تشاء كالرجل، وهذه منقبة للمرأة لم تنلها حتى المرأة العصرية فى أرقى الأمم. فإذا أجارت أحداً، أو أمنت عدداً، وجب تنفيذ أمانها، وحماية عهدها. ولذلك لما فتح النبى ﷺ مكة، جاءته أم هانىء بنت أبى طالب، وقالت يا رسول الله: قد أجرت رجلين. فقال لها رسول الله ﷺ «قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء» وعن عائشة: إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز. ونقل ابن المنذر الإجماع على صحة إجارة المرأة وأمانها. ويشهد له قوله ﷺ «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم» فهذه الولاية التى جعلها الإسلام لها، تقتضى منها أن تعلم حقوقها. لأن من موجبها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما سبق، وذاك يقتضى تعليمها ما هو معروف فى الشرع، وما هو منكر، لتطبق فى نفسها أولا، ولتأمر به ثانياً.

وإذا كانت الكتابة من جملة وسائل التعليم، بل من أهمها، أعطيت حكم المقصد. إذ لم يصح فى النهى عن تعليم الكتابة للمرأة حديث، وحديث «لا تعلموهن الكتابة» ضعيف[1]، وقد طعن الحفاظ فى سنده، بل أورده ابن الجوزى فى الموضوعات. ثم هو مع ذلك معارض بالحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى عن الشفاء بنت عبد الله، قالت: دخل على النبى ﷺ، وأنا عند حفصة، فقال «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة» ونقل الأثرم عن أحمد بن حنبل: أنه قال: هذا الحديث رخصة فى تعليم النساء الكتابة، وكذلك استدل به صاحب المنتقى على جواز تعلم النساء الكتابة.

أضف إلى هذا أنها داخلة فى عموم حديث «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران» فيدخل فى عموم التعليم: الكتابة ولا شك. فمن رام إخراجها من الحديث، فقد تعسف على أن ما درج عليه المسلمون من عهد الصحابة والتابعين إلى وقتنا هذا من مشاركة المرأة للرجل فى سائر ميادين العلم والأدب، لكاف فى بطلان ما يدعيه بعضهم من كراهة تعليم المرأة الكتابة. وها هى ذى كتب التاريخ والطبقات مملوءة بذكر العالمات والأديبات والمحدثات والنوابغ فى كل علم وفن. وقد عد البلاذرى فى فتوح البلدان، جماعة من النساء

(١) فى سنده عبد الوهاب بن الضحاك، وهو كذاب.

الكاتبات، وذكر فيهن حفصة وأم كلثوم بنت عقبة وعائشة بنت سعد التى قالت: علمتنى أمى الكتابة.

وفي مقدمة النساء العالمات، أزواج النبى ﷺ، وخاصة السيدة عائشة رضى الله عنهن جميعاً. وناهيك بما روى عنها من فقه وحديث وفتوى، حتى لقد روى عنها، ألفان ومئتان وعشرة أحاديث. بينما لم يرو عن أبيها رضى الله عنه إلا مائة واثنان وأربعون حديثًا، ولم يرد عن عمر وعلى رضى الله عنهما خمسمائة ونيف وثلاثون حديثًا، عن كل منهما.

وحسب المرأة فخاراً أن تكون قد اختيرت لوضع أول مصحف فى الإسلام، فى حفظها وذمتها وذلك يدل على ثقتها، ومكانتها فى الدين، وأهليتها لتحمل العلم وأمانته. فإن الصحف التى جمعها أبو بكر رضى الله عنه، دفعت إلى حفصة بعد مقتل أبيها رضى الله عنهما. فظلت عندها إلى أن طلبها منها عثمان رضى الله عنه، حين اعتزم كتابة المصاحف، كما هو معلوم.

وقد قدمنا أن حفصة كانت كاتبة، فلعل لذلك علاقة بوضع المصحف عندها. إذن فتعليم المرأة فى حد ذاته –وكون المرأة المسلمة حظيت منه بنصيب وافر عبر العصور المختلفة، ولا سيما فى العصور الأولى. وكون النساء كان منهن العالمات والفقيهات والأديبات والمعلمات والصوفيات والمحدثات والطبيبات – هو مما لا ينبغى أن يكون موضوع خلاف، أو جدال. إذ التاريخ أعظم شاهد على ذلك، وحسب المرأة فخاراً أن يقول عنها الذهبى فى الميزان: ما علمت فى النساء من اتهمت أو تركت، فى حين أن المتهمين والمتروكين من الرجال، لا يحصرهم عد.

ولكن موضوع التساؤل، هو الطريقة التى تعلم عليها البنت فى الوقت الحاضر. حيث أصبح من لوازمه – مع الأسف الشديد – التعرى والسفور، واختلاط الذكور بالإناث فى الجامعات، وكثير من المدارس الثانوية. وفهم التعليم من جانب البنت، على أنه وسيلة إلى الحرية والخروج عن التقاليد والأعراف والآداب الإسلامية.

ثم ما ينشأ بعد عن تعليم البنت من إعراضها عن واجبات البيت، والقيام بشئون الزوجية على الوجه المطلوب، وإهمال فروض التربية، والاندفاع نحو الوظيفة والعمل فى مهنة خارج البيت.

ثم الكيفية التى تعلم عليها، والبرامج التى تدرسها. ومدى السهر على العناية بأخلاقها وصون عقتها، وحصص التعاليم الدينية، والحرص على تطبيقها ونوع توجيهها.. إلى غير ذلك من المسائل التى تضع علامات استفهام عن مصير المرأة المسلمة المتعلمة على الطريقة المذكورة.

فالقضية إذن ليست قضية تعليم، أو حرمان من التعليم. وإنما هى قضية طرق التعليم وبرامجه، والمشاكل التى اقترنت به، نتيجة التأثر بالغرب وأنظمته.

والإفاضة فى جميع هذه النقط، بما تحتاجه من شرح وعناية وتفصيل، تحتاج إلى محاضرة خاصة، ووقت أكثر.

ولعلنى أطلت عليكم بما لا يسمح الوقت لزيادة عليه، فمعذرة وشكراً على الصبر معنا طول هذه الحصة والسلام.

بحث فى ذو القرنين

من هو . . ذو القرنين

من دواعى سرورى: أن يهتم أستاذى الكبير العالم الجليل مولاى السيد أبو الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الغمارى، بالبحث العلمى فى كتبه ومؤلفاته التى أربت على الأربعين، وأن يفسح فى مجال الكتابة لى مؤلفه هذا . . الذى طبع ونشر الجزء الأول منه تحت عنوان «خواطر دينية».

وإنه ليسعدنى أن أشير هنا: أنه كان لى حظ تبادل أوجه الرأى ومناقشة كثير من موضعات هذا الكتاب قبل طبعه فكان مولاى أبو الفضل أطال الله حياته يتقبل منى وجهات نظرى وتعليقاتى فى هذه المناقشات بروح الأستاذ العالم المعلم، واهتمام الصديق العظيم.

من هذه المواضيع . . السؤال الحائر: من هو . . ذو القرنين؟ الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم؟ الحقيقة والواقع: أن هذا السؤال شغل بال أجيال كثيرة منذ سأله سادات قريش من كفار مكة سيدنا محمداً رسول الله ﷺ بين أسئلة أخرى عن أهل الكهف، وعن الروح، وعن موسى والخضر عليهما السلام، كما علمهم يهود يثرب. حنقًا على النبى الأمى . . وامتحانا له ولنبوته، ورغبة فى تعجيزه، والتغلب عليه وإسكاته، وهو لم يزل بعد فى أول طريق الدعوة إلى الإسلام.

ولما كان القرآن الكريم هو وحده الوثيقة الأصلية، والمرجع الأوحد الذى يمكن أن يعتمد عليه أولاً وقبل كل شىء آخر، فى بحثنا عن الحقيقة لمعرفة الإجابة الصحيحة لهذا السؤال فإن مهمتى تكون سهلة فى دراسة كل المراجع الأخرى التى تساعد على إلقاء الضوء فى هذا السبيل . . وأن مهمة الباحث بطبيعة الحال هى أن يعرض دائمًا النتائج التى يصل إليها فى بحثه، بأسلوب واضح بعد اقتناعه بها.

ولقد قضيت أكثر من أربعين سنة أجوب فيها بلاد العالم فى طلب العلم والعمل . . فسافرت وعشت فيما بين أقطار العالم من أقصى الشرق – اليابان– إلى أقصى المغرب – كندا بأمريكا – وعشت بصفة خاصة فى معظم بلدان الشرق الأوسط، حيث لم أترك

فرصة للاستفادة منها فى معرفة تاريخ هذه البلاد ودراسة آثارها إلا انتهزتها. وبهذا استطعت أن أطمئن فيما يتعلق بذى القرنين وشخصيته إلى جواب شاف، ارتاحت له نفسى واطمأن ضميرى. فنشرت – ما توصلت إليه ورجح عندى أنه ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم – فى بعض مجلات إيران والمغرب والباكستان وأذعت ذلك أيضًا فى إذاعة الكويت.

كانت هناك على مدى أجيال طويلة مضت آراء كثيرة متضاربة حول شخصية ذى القرنين ومن يكون؟.. منها ما يقول: إنه الإسكندر الأكبر المقدونى.. ومنها ما يقول: إنه قورش الفارسى ومنها ما يقول «أنه كان عبداً صالحًا ملكه الله الأرض» وقيل ملكاً من الملائكة الخ.. «كما جاء فى الكشاف» للزمخشرى وغيره.

فمن الضرورى والحالة هذه: أن نجعل الحقيقة الخالصة بقدر الإمكان نصب أعيننا، لتكون سبيلنا إلى الاقتناع التام بأننا فى إجابتنا على هذا السؤال.. لا نعتمد على مجرد تفاسير تقليدية، أو مسلّمات موروثة، لا تتفق مع وقائع التاريخ، وشواهد الآثار.. وحتى لا نشك لحظة فى صدق ما توصلنا إليه فى هذا الشأن يجب علينا أن نضيء النور لنبدد الظلمة تمامًا، ونجعل رؤيتنا واضحة جلية، أوضح مما مضى، وأظهر وضوحا عن كل ما كان من قبل، مما قيل عن ذى القرنين، فى كل العصور السابقة، حتى نؤمن يقينا بأن ما نقرره فى هذا الأمر هو الحق.

طبيعة السؤال وملابساته:

لما اشتدت الدعوة الإسلامية التى نادى بها محمد ﷺ فى مكة.. وتحيرت قريش فى مقاومتها، وحاول سادات قريش عبثا القضاء عليها بكل الوسائل.. ووجدوا فى انتشارها يومًا بعد يوم، وزيادة اتساعها وقوتها وذيوع أمرها، فى شبه الجزيرة العربية، تهديداً خطيراً مستمرًا لهم ولمكانتهم ومعتقداتهم ومصالحهم الحيوية – الأمر الذى أزعج كذلك فى نفس الوقت يهود يثرب فى الشمال، وأثار مخاوفهم مع بعد الشقة بينهم وبين مكة فى الجنوب – التمس سادة قريش عند أهل الكتاب من يهود يثرب العون لمحاربة محمد ودعوته وأفكارة، بأفكار علمية، قد تعجزه وتكشفه وتسكته إلى الأبد.

ومع شدة حرص اليهود التقليدى المعروف على كتمان علومهم عند أبناء الأمم الأخرى.. وكتمانهم الحق –الذى يعرفونه فى التوراة كما يعرفون أبناءهم أو أكثر – فقد

رأى يهود يثرب الاستجابة إلى طلب كفار قريش، لأنهم وجدوا فى مجىء سادات قريش إليهم، فى مدينتهم يثرب الفرصة والمبادرة لتحطيم الدعوة الجديدة فى مهدها، وذلك بمد خصوم محمد من قومه العرب بما يحتاجون إليه من العلم، كسلاح فعال فى المعركة الدائرة فى مكة – لهذا أوعز اليهود إلى رجالات قريش أن يسألوا محمداً ﷺ عن أشياء مكتوبة فى توراتهم، لا يعرفها أحد سواهم، وسوى أحبارهم. فقالوا لقريش: سلوا صاحبكم عن ثلاثة أشياء: أصحاب الكهف، وذى القرنين، والروح – وقيل عن موسى والخضر أيضًا – فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت عنها جميعًا، فليس بنبى.. وإن أجاب عن بعض، وسكت عن بعض، فهو نبى.

وكان اختيار أحبار اليهود وعلمائهم فى يثرب لهذه الأسئلة عملاً مدروسًا مخططا بدقة، يهدفون من ورائه، تعجيز النبى. لأنهم كانوا يعرفون تمامًا أن العرب فى زمنهم، يجهلون حقيقة شخصية ذى القرنين المشار إليها فى أسفارهم، والمحفوظة لديهم بحرص فى بطون كتبهم المقدسة، كما يبدو من اختيار هذه الأسئلة بالذات: أنها اختيرت بعناية فائقة، بحيث يلتبس الأمر على محمد – إن لم يكن نبيا يأتيه الوحى بعلم السماء – فلا يمكنه أن يعرف شخصية ذى القرنين المقصودة. خاصة أنه كان بعض العارفين من الناس فى ذلك الوقت يسمعون عن الإسكندر المقدونى. وكانوا يذكرون أن الإسكندر مات – فى زمانه اليأس بن مضر بن نزار بن بَعدّ بن عدنان، جد النبى وقبائل قريش، وزعيم قومه، وسيد مكة فى ذلك الوقت – فظن اليهود أنه إن كان محمد من هؤلاء الناس فإنه سوف يسقط حتمًا فى امتحانهم، ويقع فى الشرك الذى نصبوه له بهذه الأسئلة الماكرة التى رتبوها بإتقان، كما ترتب عادة الأحاجى والألغاز.

وكدأب اليهود دائمًا، فإنهم لم يسألوا النبى هذه الأسئلة بواسطة رجالات قريش وسادتها، ألا وهم يعلمون تمامًا، ما وراءها من الحق. كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٤٦] ويقول عز من قائل: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٧٦]. وأهم حقيقة يجب علينا ألا نغفلها أن يهود يثرب، أدركوا بحاستهم الخفية التى لا تخيب، مقدار الخطورة الكامنة – التى تهددهم – فى تفوق الإسلام وانتصار محمد.

سؤال :

يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا** ﴾ [الكهف : ٨٣-٨٥] .

إن فى كتاب الله الكريم اشارات كثيرة يحتاج تفسيرها إلى معرفة شاملة بالتاريخ وسعة اطلاع بأحوال الأمم السابقة، وما كان لها من معتقدات وحضارات ونظم وآثار .

ومن أسرار إعجاز القرآن الكريم : أنه جديد دائمًا أبدًا، يساير الفكر والحضارة الإنسانية فى تطورها، فى كل زمان ومكان، لأنه ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وكان توجيه مشركى قريش للنبى الكريم، هذا السؤال وقتئذ عن ذى القرنين، إشارة من إشارات كتاب الله التاريخية الكثيرة التى شغلت المفسرين والمؤرخين طوال عصور وأجيال ماضية . فلم يخرجوا فى أبحاثهم بنتيجة حاسمة، بعد أن حيرتهم شخصية ذى القرنين فى الاهتداء إليها .

وكان أسلوب القرآن الكريم، فى الإجابة على هذا السؤال واضحًا . فإنه لم يشأ، لحكمة يعلمها الله عز جلاله وحده، أن يذكر صراحة اسم ذى القرنين ويحدده بالنص وقت نزول هذه الآية . . إلا أنه جاء رده بكل التفاصيل الدقيقة الوافية عن شخصية ذى القرنين، بحيث نتعرف على ذى القرنين بسهولة ويسر، إذا أمعنا النظر قليلاً . وقمنا بدرس سيرة هذه الشخصية من خلال هذه التفاصيل التى فصلها القرآن الكريم، مطابقة تمامًا لهذه الشخصية وأبعادها .

القرآن الكريم . . وذو القرنين :

ماذا جاء عن ذى القرنين . . فى القرآن الكريم؟

يقول الله تعالى فى محكم كتابه العزيز وهو أصدق القائلين، وذلك إجابة على سؤال سادة قريش ما يلى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ**

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٨٣-٩٩].

التوراة.. وذو القرنين:

قال الله تعالى: ﴿ **ويسألونك!** ﴾.

فمن هم السائلون؟ كلنا نعرف: أنهم سادة قريش، ومن ورائهم يهود يثرب. فالسؤال الأساسى إذن الواجب علينا طرحه الآن.. هو: كيف وضع اليهود سؤالهم هذا؟ إنهم بلا شك نظروا فى توراتهم فوجدوا بها اسم ذى القرنين. وهم يعملون من أمره، ما كان يجهله العرب وقتئذ. وهذا يجرنا إلى سؤال آخر، وهو: فماذا كان يعلم اليهود من ذى القرنين فى ذلك الوقت؟

كان اليهود يعلمون بأن ذا القرنين لم يرد وصفه فى توراتهم إلا مرة واحدة.. وأنه لم يذكر اسمه بالنص فى أسفار أنبيائهم الأمرة واحدة كذلك.

ذكر وصف ذى القرنين مرة واحدة، فى رؤيا النبى دانيال، أو بلطشاصر، كما كان يسمى. وذكر اسم ذى القرنين بالنص مرة واحدة، فى سفر النبى يشعياه، أو أشعياء.

ففى المرة الأولى: كان ذلك فى رؤيا النبى دانيال، وهى رؤيا رآها خلال أيام أسر بنى اسرائيل، ووجودهم الذليل فى بابل. بعد أن قام الملك الكلدانى الجبار نبختنصر الثانى الأكبر بن نابو بلصر، بغزو مملكة يهوذا، وسحقها تحت أقدامه وقام بتخريب أورشليم عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وهدم الهيكل ودمره تدميراً، وطرد بنى إسرائيل من فلسطين وساقهم أمامه إلى الأسر فى بابل - جنوبى العراق - حيث ظلت عشرة قبائل من قبائل بنى

إسرائيل الاثنتى عشرة فى أسر بابل، خمسين سنة كاملة أو تزيد.

وكانت رؤيا النبى دانيال تتلخص فى أنه رأى فى منامه كبشا قويًا له قرنان عاليان، ينطح بهما غربا وشرقا. ثم رأى تيسا أقبل من الغرب بقرن واحد، عينيه بارزتين، فلما اقترب التيس، من الكبش نطحه فكسر قرنيه وصرعه. وذكر السفر: أن جبريل عليه السلام فسر لدانيال رؤياه بأن الكبش ذو القرنين هو رمز اتحاد لمملكتى ميديا وفارس المتجاورتين – بإيران – فيملكهما ملك واحد لا تقدر دولة على مواجهته. أما التيس ذو القرن الواحد، فقد فسره له جبريل بصراحة بأنه يرمز إلى ملك اليونان.

وكان اليهود فى بابل، بعد أن قضوا عشرات السنين فى ذل الأسر، وعذاب العبودية، فى أشد الحاجة إلى الأمل يُبعث فى نفوسهم المحطمة. فأرسل لهم الله تعالى النبى دانيال يرفع من معنوياتهم المنهارة بهذا الحلم المبشر المضئ، وهذه الرؤيا الإلهية التى تجدد فى نفوسهم أمل مجىء المنقذ الذى يخلصهم من العذاب والعبودية والأسره، ويفرج عنهم، ويعيدهم جميعًا من جديد إلى وطنهم، وإلى بيت المقدس وإلى الحرية..

وهكذا نرى أن ذا القرنين، لم يذكر هنا فى هذه الرؤيا إلا إشارة ورمزًا.

كما نرى بما لا يدع مجالاً للشك أن جبريل عليه السلام، فسر للنبى دانيال رؤياه هذه تفسيرًا واضحًا غاية الوضوح، مؤكدًا أن ذا القرنين إنما هو ملك فارسى، سيوحد بقوة سيفه ميديا وفارس، ويحكمهما تحت تاج واحد، ،ولا تقدر دولة على مواجهته حتى إذا قضى هذا الملك وأشرف عهد مملكته الزاهر على الزوال، جاء ملك أجنبى من الغرب يهاجم هذه المملكة ويحطمها ويقضى عليها وعلى استقلالها، هو ملك اليونان.

لهذا فإنى أعتقد أنه لم يكن يهود يثرب من البلاهة أو الغفلة – وهم يمتحنون محمداً ونبوته ﷺ، ويحاولون تحطيمه وسحقه بالكلمة والفكرة وهذه أفتك الأسلحة فى حرب العقيدة، أن يقصدوا بسؤالهم إياه عن ذى القرنين، إلا قوروش الفارسى، ال الأسكندر المقدونى الذائع الصيت، وذلك بسبب بسيط هو أن الأسكندر المقدونى، لم يذكر اسمه مطلقًا فى توراة اليهود. أما الذى ذكر اسمه بالنص فى توراتهم فإنما هو قورش.. ووصفه الله تعالى فيها بأنه ذو القرنين.

بعد ذلك مباشرة.. أى بعد قول الله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿**ويسألونك**﴾ قال: ﴿**قل سأتلوا عليكم منه ذكراً**﴾ أى عن ذى القرنين. وهنا يجدر بنا أن نقف قليلاً لنسأل مع من سبقونا فى السؤال من قبل: هل كان ذو القرنين ملكًا أو نبيا أو فردًا عاديًا من البشر؟

هل عاصر إبراهيم عليه السلام؟ هل كان ملكًا عربيًا أو يهوديًا أو يمنيًا من ملوك تبع الذين كانوا يحملون لقب ذو؟

هل هو الإسكندر؟

أم هو قوروش؟

أم أنه كان ملكًا من الملائكة؟ أو غير ذلك؟

وهنا فإننا لا نستطيع أن نترك هذه الأسئلة ونخطو خطوة واحدة للإجابة على أى منها، قبل أن نذكر ما جاء فى رواية للسدى: أن اليهود قالوا: أن ذا القرنين ذكر اسمه بالنص، مرة واحدة فقط فى التوراة.

ففى سفر يشعياه أو اشعياء، نبوة أخرى – غير نبوة دانيال النبى السالف الذكر – عن ظهور ملك قوى، اسمه: قوروش الذى يكون عليه فك أسر اليهود فى بابل، لأنه كما يقول عنه الله تعالى فى توراته «مسيح الرب».

بالإضافة إلى سفر برمياه الذى جاءت فيه إشارة إلى ما حدث لليهود من أسر وإفراج بعد ذلك، تفسيرًا وتحقيقًا لرؤيا دانيال ونبوة أشعياء.

وخلاصة كل هذا، تدل على أن تصور قورش، أو قوروش الفارسى، كان قد وجد فعلاً عند اليهود. وبذلك يكون المقصود فى سؤال يهود يثرب الذى طرحه مشركو قريش على سيدنا ونبينا محمد ﷺ عن ذى القرنين، هو قورش الموجود اسمه عندهم فى التوراة.

وإنى أسوق هنا الآن الدليل على صحة ما ذهبت إليه، بتسجيل ما جاء فى التوراة بالنص وهو ما يلى:

«فى السنة الثالثة من ملك بَيْلشاصر، ظهرت لى أنا دانيال رؤيا بعد التى ظهرت لى فى الابتداء فرأيت فى الرؤيا – وكان فى رؤياى وأنا فى شوشال القصر الذى فى ولاية

عيلام – ورأيت فى الرؤيا وأنا عند نهر أولاتى . فرفعت عينى ورأيت وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً . رأيت الكبش ينطح غربًا وشمالاً وجنوبًا فلم يقف حيوان قدامه، ولا منقذ من يده، وفعل كمرضاته وعظم . وبينما كنت متأملاً إذا بتيس من المعز جاء من الغرب على وجه الأرض، ولم يمس الأرض، وللتيس قرن معتبر بين عينيه . وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذى رأيته واقفًا عند النهر، وركض إليه بشدة قوته ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش فاستشاط عليه، وضرب الكبش، وكسر قرنيه، فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه، وطرحه على الأرض وداسه، ولم يكن للكبش منقذ من يده . فتعظم تيس المعز جداً ، ولما اعتز انكسر القرن العظيم وطلع عوضًا عنه أربعة قرون معتبرة نحو رياح السماء الأربعة » .

هذا ما جاء بالنص فى الإصحاح الثامن من سفر دانيال بالتوراة من آيات عن رؤيا دانيال النبى . أما عن تفسير جبريل لهذه الرؤيا، فإنه فيما يلى نصه :

« وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعنى إذا بشبه إنسان واقف قبالتى وسمعت صوت إنسان بين أولاتى فنادى وقال : يا جبريل فهم هذا الرجل الرؤيا » . . فقال : افهم يا بنى آدم أن الرؤيا لوقت المنتهى . . أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى – أى ميديا– وفارس . والتيس العافى ملك اليونان . والقرن العظيم الذى بين عينيه هو الملك الأول . وإذا انكسر وقام أربعة عوضًا عنه فستقوم أربع ممالك من الأمة، ولكن ليس فى قوته الخ . . »

وفى سفر إشعياء بن آموص بالتوراة نص على الاسم بوضوح قاطع فقد جاء فى آخر الإصحاح ٤٤ الآية ٢٨ :

« القائل عن كورُش راعىَّ فكل مسرتى يتمم، ويقول عن أورشليم ستبنى والهيكل ستؤسس » .

وبعد ذلك جاءت الآية الأولى من الإصحاح الخامس والأربعين وفيها ما يلى :

« وهكذا يقول الرب لمسيحه لكوروش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أسما واحفاد ملوك، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق . أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد اقصف ٣ . وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابيء لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك إله اسرائيل ٤ .

وفى الآية ١٤ يقول الله تعالى :

« أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أُسَهِل هو يبنى مدينتى – يعنى أورشليم – ويطلق سبيى – أى أسرى بابل من بنى إسرائيل – لا بثمن ولا بهدية، قال رب الجنود ١٤ .

· وهنا نقف لحظة لنتأمل الأوصاف المحددة بصراحة فى قوله تعالى : فى الآية الخامس من الإصحاح الثامن فى سفر دانيال حيث يقول « رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه » .

وفى الآية ٢١ من نفس الإصحاح الثامن : « أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى –أى ميديا– وفارس (وملوك يعنى امبراطور أو كسرى) والتيس العافى ملك اليونان » .

فاتجاه مسير ذى القرنين متفق عليه فى التوراة والقرآن على أنه كان فى بدايته متجها إلى الغرب، إلى مغرب الشمس . وهذه نقطة هامة جداً من معالم البحث عن حقيقة ذى القرنين، نحدد بها شخصيته .

من هو الإسكندر وذكر فتوحاته

من هو الاسكندر . . ومن هو قورش؟

ليس هنا المجال المناسب لتناول سيرة الإسكندر الثالث وأعماله، ولا تاريخ قورش الثانى، وسيرته بطريقة مسهبة، لاعتبارات كثيرة من أهمها ضيق الحيز المتاح لى للكتابة فيه ولعدم توفر المادة العلمية والمراجع، بالإضافة إلى إفتقادى أصول ما سبق لى كتابته ونشره وإذاعته حول هذا الموضوع من قبل .

على أية حال فإن الإسكندر الثالث الاكبر ولد فى صيف عام ٤٥٦ ق م فى مقدونيا –فى نفس الليلة التى اشتعلت فيها النيران وأحرقت بناء معبد ارتميس القديم فى مدينة إفسوس Ipsus (بالأناضول) وهو ابن الملك فيليب الثانى عن الأميرة أولمبياس . وافسوس تقع بجوارها مدينة أُبُلُسْتِين وهى مدينة أهل الكهف فى بلاد الروم، كما ذكر ياقوت فى معجمه .

ولما كان الإسكندر فى سن السادسة عشرة تولى حكم مقدونيا أثناء غيبة أبيه الملك فيليب ونجح فى إخماد ثورة فى تراقيا .

وفى الثامنة عشر تولى إمرة الجناح الأيسر فى جيش فيليب فى حرب خيرونيا Chaeronea وشتت شمل «عصبة طيبة المقدسة».

وخلف أباه على عرش مقدونيا عام ٣٣٦ ق م أثر اغتياله بيد أحد أعوانه من النبلاء، وهو بوزانياس Pausanias بإيعاز من زوجته أولمبياس نفسها أم الإسكندر.

ورغم أن الإسكندر كان من أصل يونانى، إلا أن دم الليريا أى ألبانيا كان يجرى فى عروقه يقينا منحدراً إليه من والديه.

وقد تتلمذ الإسكندر وهو فى الثالثة عشر، على الفيلسوف أرسطوطاليس المعلم الأول وكان من المعروف أن الإسكندر عانى من عقدة الشك فيما إذا كان حقيقة ابنا شرعيًا لأبيه فيليب الذى كثيراً ما أهانه أبوه بذلك، حتى كان الإسكندر يكره أباه فيليب كراهية الموت أو أشد.

وعقب موت أبيه الفجائى غيلة.. تحركت الفتن واشتعلت الثورات والانتفاضات ضده فقام يوطد نفوذه فى خارج مقدونيا، بمجرد أن تخلص هو وأمه من خصومهما الشخصيين والسياسيين فى الداخل، بعد أن اتهمهم الإسكندر بمؤامرة اغتيال أبيه الملك فيليب لحساب الفرس الأعداء. وذلك بإعدامهم جميعًا وفيهم كليوباترة، ابنة أخت قائده أتالوس Attalus التى كانت فى نفس الوقت ضرة أمه.

ولما تهيأ للإسكندر بعد ذلك الجو لتحقيق أحلامه وآماله، اتجه الإسكندر أولاً شرقًا.. شطر بلاد اليونان لشدة خطورتها عليه، وتحركها ضده. وذلك فى نهاية صيف ٣٣٦ ق م، ثم سارع نحو الجنوب للالتفاف حول تيمبى Tempe التى كانت قد احتلها التساليون فتسلق عليهم الإسكندر وقواته، جانب جبل اوسا Ossa الوعر واستولى عليها بلا قتال.

وبعد أن استعاد مكانته فى أقاليم حلف كورنثة، وفرض نفسه قائداً أعلى لهذا الحلف، بدأ يتطلع إلى غزو آسيا.

وفى ربيع عام ٣٣٥ ق م، قام الإسكندر بحملته الخاطفة فى حوض الطونة فحارب التريباليين Triballis متخذاً طريقه صوب الشرق.

وبعد قتال عنيف، أوقع الإسكندر بأعدائه الهزيمة، ثم قام بغزو اليونان، ففتح طيبة ونهبها ودمرها، فسارعت كل مدينة يونانية إلى الخضوع والاستسلام، وتقديم الولاء،

وخرت أثينا نفسها ساجدة تحت أقدامه.

وفى خريف عام ٣٣٥ ق م تأهب الإسكندر، لغزو الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف، بأكملها تحقيقًا لأحلامه ومشاريعه التوسعية، والأخذ بالثأر لأبيه. وكان أستاذه ومعلمه العظيم أرسطو طاليس يرى أن هذه الحرب طبيعية وعادلة!

وفى ربيع عام ٣٣٤ ق م، عبر الإسكندر مياه الدردنيل بجيش عرمرم يزيد على الثلاثين ألفا من المشاة، وأكثر من خمسة الآف من الفرسان، وسار بهم، وهو على صهوة جواده الشهير بوكيفالوس Bucephalus متجها صوب الشرق.

كأنما كان الإسكندر يشعر بأنه مقدر له أن يحطم الإمبراطورية الفارسية العتيدة.. إمبراطرية قوروش.. تمامًا كما تنبأ بذلك من قبل فى بابل، نبى الله دانيال، لبنى إسرائيل.

وتقدم الإسكندر فى زحفه فتوجه إلى آسيا الصغرى -التى كانت أرضًا خاضعة وقتئذ للفرس - صوب أنقرة ثم هبط جنوبًا إلى طرسوس ومعناها: جبال الفضة، وهناك عند السهل الصغير قرب إسوس Isuus من أبواب سوريا التقى الإسكندر بغريمه الملك دارا الثالث، أو دار ابو سند الفارسى، وجيشه الذى كان يبلغ ربع مليون مقاتل. وكان ذلك عام ٣٣٣ ق م، ودارت معركة تاريخية فاصلة كبرى انتصر فيها الاسكندر، انتصاراً عظيمًا، وأسر فى هذه المعركة أم دارا وزوجته وبنتيه، فأحسن الإسكندر معاملتهن. ثم تزوج الإسكندر فيما بعد الأميرة بارسينى Barsine واسمها الفارسى روشنك، احدى بنات دارا وذلك فى مدينة سوسا عام ٣٢٤ ق م أثر عودته من غزو الهند.

ثم زحف الإسكندر جنوبًا فى بلاد الشام نحو صور فى يوليو عام ٣٣٢ ق م، فاحتلها كما احتل مدينة دمشق، ثم القدس وفلسطين كلها، ثم زحف من غزة على مصر، فوصلها فى أواخر نوفمبر عام ٣٣٢ ق م، فاستسلم له حاكمها الفارسى. ومن هناك ركب الإسكندر النيل إلى مدينة ممفيس عاصمة مصر وقتئذ، حيث قدم الإسكندر القرابين لعجل أبيس Apis وكان فى وسعه لو أراد، أن يفعل ما فعله ما فعله قمبيز الفارسى من قبل ابن قوروش المؤمن بإله واحد، هو رب السماء والأرض. فإن قمبيز لما فتح مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد، قتل بيده عجل أبيس المقدس فى معبده، على مرأى ومسمع من جميع المصريين والكهنة بطعنة خنجر سددها إليه بيمينه. وأبى قمبيز عبادة

المصريين للعجل، كما أبى الاعتراف به والسجود له.

ثم شد الإسكندر رحاله إلى واحة سيوة، حيث سجد للاله الضم آموله - رع. وفى سيوة أو واحة آمون كما كان اسمها القديم. اجتاز الإسكندر، احتفالاً بتتويجه صار بمقتضاه ابنا لآمون. وألبسه الكهنة القرنين المقوسين لكبش طيبة، كبرهان على أنه من نسل إلهى، وأنه أصبح بذلك حسب الطقوس المرعية فى مصر، ملكًا شرعيًا وفرعونا لمصر.

ثم عاد الإسكندر فى ربيع عام ٣٣١ ق م إلى مدينة صور مرة أخرى. وفى يوليو عبر الإسكندر نهر الفرات، حيث التحم مع داراً فى معركة حاسمة قرب قرية جوجاميلا Gauoamela ومنها تقدم جنوبًا إلى بابل فسلمت له بلا قتال، ثم زحف شرقًا إلى فارس.

والحقيقة أن انتصار الإسكندر فى صور -بلبنان- كان من أعظم انتصاراته، لهذا قدم الإسكندر القرابين والأضاحى للإله ميلكات الوثن.

فلما وصل فارس دخل اقليم برسيس Persis أولاً ثم أسرع بعد ذلك إلى مدينة برسبوليس العريقة Persepolis وهى اصطخر، عاصمة الفرس فى ذلك الوقت فغنم منها مغانم كثيرة، ثم طارد الملك دارا الثالث فى اكباتانا - واسمها القديم بالفارسية هكمتانة، وفى التوراة اخمنتا، وهمذان حاليًا فى ايران - وكانت عاصمة ميديا فهرب منه دارا إلى الشمال، حيث اغتاله اثنان من خونة رجاله الفرس، طعناه فى الطريق، فمات همّا بارسائنيتس أو باسيوس Bessius وساتيبارزانيس، وقد أعدمهما الإسكندر، انتقامًا منها لاغتيالهما داريوس الثالث عذراً بعد هزيمته أمام الإسكندر فى معركة اربيلا أو اربيل الفاصلة بالعراق عام ٣٣١ ق م.

ومدينة اربيل تقع فى الشمال الشرقى من بغداد، فى سهل متسع بين نهرى الزاب الكبير، والزاب الصغير، وهى مدينة تاريخية ترجع إلى عهد الأشوريين، وهى من أهم مدن الأكراد ومعظم سكانها اليوم منهم.

ومما هو جدير بالذكر: أن الإسكندر أدرك خصمه داريوس وهو طريح على الأرض، يلفظ آخر أنفاسه، فغطاه الإسكندر بعباءته الأرجوانية، حتى مات، ثم حمله فى إعزاز مكرما ودفنه فى موكب حافل، كما يدفن عادة الملوك الأخمينيين. وكان داريوس الثالث

آخرهم. ودفنه فى مقابر الأكاسرة من آبائه وأجداده فى برسبوليس - مدينة فارس أو اصطخر العاصمة الكبرى التى أحرقها الإسكندر ودمرها.

وقد تزوج الإسكندر الأميرة روشنك ابنة دار، بناء على توصيته وهو فى النزع الأخير. ولما مات الإسكندر بعد ذلك فى بابل، بحمى الملاريا التى قيل: أنه أصيب بها هناك - وكان ذلك فى اقليم المستنقعات فى منطقة العمارة الحالية والقرنة جنوبى العراق، حيث تسكن اليوم قبائل عرب المنتفق - حزنت عليه أم دارا الثالث حزنًا شديدًا، جعلها تقضى على حياتها بنفسها - انتحرت - وذلك بامتناعها حتى الموت عن الأكل، حزنا على وفاة الإسكندر الأكبر، هذا الرجل الذى لم تنس له أنه أكرمها هى وزوجة ابنها وبناتها،و واظهر لهن شهامة نادرة يوم أن وقعن جميعًا أسرى فى يده، وهكذا ماتت أم دارا الثالث الملكة الفارسية سيسيجامبيس Sisyoambis.

وبموت دارا الثالث، قضى على عائلة قوروش الحاكمة فى فارس التى استمرت تحكم هذه الأمبراطيورية العظمى قرابة قرنين من الزمان، باسم عائلة هتمامنسى كما قضى على هذه الأمبراطورية نفسها، وانتهى استغلالها.

بعد ذلك قام الإسكندر بفتح شرقى إيران، ثم تابع الزحف والمسير شرقًا مارا بباميان Bamyan يعنى المدينة الحمراء، وهى قرب كابول بالأفغانستان. وبعدها قاسى الجيش أهوالاً من الجوع وقلة الوقود والتآمر. ولكن الإسكندر استطاع تسوية هذه الأمور، وواصل الزحف إلى نهر جيجون واسمه الإغريقى اوكسوس Oxus ميممًا شطر جنوبى نهر سيحون حيث جرح هناك.

وفى نهاية عام ٣٢٨ ق م هاجم الإسكندر قلعة صغد التى كانت تسمى صخرة صغد المنيعة، وكانت على قمة جبل شامخ الارتفاع قرب ديربنت Derbent فاقتحمها على رأس وحدة من رجاله الفدائيين، عددهم ثلثمائة رجل فقط. وكان هذا الحصن هو الذى يعتصم فيه أوكسيارتيس وكان متغيبًا يومئذ خارج حصنه. فلما هاجم الإسكندر هذا الحصن، واستولى عليه، لم يجد فيه إلا أسرة خصمة، فأسرها مع من أسرهم من رجال الحامية بالقلعة. ثم تزوج الإسكندر الأميرة روكسانا Roxane بنت اوكسيارتيس تعيسة الحظ. فقد أعدمها فيما بعد، عام ٣١١ ق م، الملك المقدونى كاسندر Cassandre زوج

أخت الإسكندر، فى المذبحة الكبرى التى قضى فيها على جميع أفراد أسرة الفاتح العظيم الإسكندر المقدونى.

وفى العام التالى ٣٢٧ ق م قام الإسكندر بغزو اقليم صغد فى سمرقند أو ماراقندا كما كانت تسمى، وأما اسمها القديم فهو زادراكارتا. وفتح الإسكندر الإقليم كله وهناك وصلته امدادات كثيرة، وهو فى باكتريا ببلخ، استعداداً لغزو الهند، وكانت الهندوقتئذ جزءاً من الإمبراطورية الفارسية الكبرى التى حكمها دارا الأول - داريوس الأكبر أو دار يافوس حفيد قوروش الثانى (٥٢١ ق م - ٤٨٥ ق م).

ولم يتعد الإسكندر فى كل زحفه الطويل أرض خوارزم شمالاً. ثم وصل أخيراً إلى سمرقند، وهى بجمهورية أزبكستان حاليًا، فيما بين بلاد ما وراء النهر بآسيا الوسطى.

وفى أوائل صيف عام ٣٢٧ ق م زحف الإسكندر جنوبًا عن طريق ممر كوشان الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من أربعة آلاف متر بقيادة جنرالات جيش مقدونيا البواسل، ومنهم هيبايستول وبيرديكاس صوب الهند.

ثم انحدر لغزو البنجاب، ففتحها بعد أن تغلب على قبائل الأفريدى والباتان الأشداء سكان ممر خيبر ذى الأخدود السحيق الموجودين بمنطقة الممر بامتداد الأرض من مرتفعات أفغانستان الشامخة إلى سفوح سلاسل جبال سليمان غرب سهول بشاور فى شمال باكستان الغربية منذ عام ٧٠٠ ق م.

وظل الإسكندر وجيشه ينتقل من نصر إلى نصر، رغم اصابته مراراً بجراح فى معاركه البطولية التى تشبه الأساطير، حتى وصل إلى بباس. وهناك تذمر الجيش وقام رجاله باعتصاب، ورفضوا التقدم أبعد من ذلك. فعاد الإسكندر من حيث أتى متجها هذه المرة شمالاً، وهو يخوض أشد المعارك الوحشية بعنف من جديد، بينما اجتاز أسطوله البحرى أثناء عودته من الهند بقيادة الأميرال المقدونى نيارك مياه الخليج الفارسى مستكشفًا شواطئه، وممهداً هذا الطريق الملاحى لقوافل السفن إلى الهند، حاملة منها العطور والحرير والتوابل التى كانت تفوق فى قيمتها الذهب.

وأخيراً وصل الإسكندر فى سبتمبر عام ٣٢٥ ق م مدينة جدروسيا (المقران) الجنوبية ومنها وصل إلى سوسا Susse حيث أقام الإسكندر أعظم عرس عرفه التاريخ تزوج فيه بارسينى أو الأميرة روشنك بنت دارا الثالث وزوج فيه معه فى نفس الليلة ثلاثين ألفًا

من رجاله بفارسيات فى مقدمتهم قائده وصديقه هيفايستيون زوَّجه من ابنة دارا الصغرى دريبتيس Drypetis، وسوسا اتخذها الإسكندر عاصمة لفارس.

أنا ربكم الأعلى:

فى هذه المرحلة من حياة الإسكندر الأكبر، أصدر مرسومًا إلى المدن والأقاليم التى فتحها وأخضعها، فرض به على جميع رجاله ورعاياه تأليهه وعبادته والسجود له. وهو اجراء أحمق، وتصرف لم يكن له ما يبرره، أثار استياء الجيش وسخطه وثورته، الأمر الذى انتهى بغضب الإسكندر غضبًا عارمًا أمر خلاله بتسريح الجيش كله، وإعفائه من خدمته وعن جميع التزاماته.

وفى ٣١ مايو ٣٢٣ ق م، أصيب الإسكندر الأكبر – الذى لا يقهر – بحمى الملاريا – وقيل: إن أمه نفسها.. التى قتلت زوجها من قبل – دست له السم، وبعد عشرة أيام، مات الإسكندر فى ١١ يونيو عام ٣٢٣ قبل الميلاد، وهو الثالثة والثلاثين من عمره. وكانت وفاته فى قصر نبختنصر الثانى Nabuchodonosor فى بابل أو بابليون.

وقد امتد حكم الإسكندر الأكبر، اثنى عشر عامًا وثمانية أشهر.

وبابل – مدينة الحِلَّة حاليًا جنوبى بغداد بالعراق – هى إحدى المدن الأثرية القديمة الموجودة أطلالها حتى الآن، ويعنى اسمها بالسريانية: النهر، وبابليون يعنى النهر المبارك، أما بابل بالسوميرية، فمعناها: بوابة الله، أو باب الله.

أين قبر الإسكندر؟

يهمنى وأنا اسجل هنا ملخصًا عن حياة الإسكندر، أن أشير اشارة عابرة إلى أن معلوماتى التاريخية، تحملنى على الاعتقاد بأن قبر الإسكندر الموجود فعلاً فى مدينته الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط، يقع فى المكان الموجود به حاليًا مسجد النبى دانيال. فإنه من المؤكد أن نبى الله دانيال مات ودفن فى الشرق أى فى أرض المملكة الفارسية القديمة – وبالتحديد فى الموصل – وأنه لم ير مصر فى حياته قط.

أما مسجد الإسكندرية هذا المنسوب خطأ إلى النبى دانيال، فهو فى الواقع وحقيقة الأمر، قد أنشىء إحياء لذكرى ولى الله الصالح الفقيه الشافعى الشيخ محمد بن دانيال المصرى(١). وأصله مغربى من أهل مدينة فاس – المتوفى بالإسكندرية فى القرن التاسع

(١) كان ماهراً فى علم الفرائض، وهو مدفون فى ذلك المكان بالإسكندرية.

الهجرى. حيث كان هذا المكان المشهور المدفون فيه من قديم، مكان جبانة الإسكندرية التاريخية التى عرفت باسم سوما Soma – أى الجسد باليونانية – والتى يوجد بها قبر الإسكندر الأكبر فى سرداب تحت الأرض.. أرض هذا المسجد القائم هناك حتى اليوم. وقد زار الأمبراطور اغسطس الرومانى قبر الإسكندر عام ٣٠ ق م ووجده بحالة جيدة.

لقد دفن الإسكندر بعد نقله من منف فى عهد بطليموس فيلادلفوس الثانى، فى جبانة الإسكندر «سوما» وهو اسم تحرف إلى سيما. كانت مدافن سوما فى الحى الملكى بالإسكندرية القديمة فى ذلك الوقت، حيث كان يوجد بقربها أربعة عشر قصرًا ملكيًا لملوك البطالمة، وحدائق حيوانات كبيرة، ودار الحكمة الشهيرة، أو الموزيون أكاديمية الإسكندرية. كما كان بها قبور البطالمة قرب المنار فاروس، أعجوبة العالم القديم، ومكتبة الإسكندرية التى احترقت فى القرن الرابع الميلادى، قبل الفتح الإسلامى لمصر، بقرنين من الزمان أو يزيد. كما أثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك المستشرقون المحققون المعاصرون كازانوف Casanova P ونايدو Naidu P.V. وفورلانى Furlani G.A. وغيرهم من العلماء المنصين الثقات، فإنهم أكدوا أنه من الصعب تصور وجود مكتبة عامة سليمة فى الإسكندرية بعد القرن الرابع الميلادى، لأن المدينة كانت فى ذلك الوقت نهبا للفوضى والعنف وممزقة بالخلافات الدينية والسياسية، وثورات الجماهير ضد أباطرة بيزنطة، والحكم الإغريقى.

مثال من التاريخ المعاصر:

أنتقل الآن إلى الكلام عن قوروش الملك الفارسى القديم، وسيرته بإيجاز. ويهمنى أن أقول: أنه عندما درست تاريخ حياة هذا الفاصل الكبير، وأمعنت فيه النظر، وجدت أن له مثيلا فى تاريخنا المعاصر يشبهه تقريبا.. ففى تاريخ حياة الملك العربى عبد العزيز آل سعود، وسيرته مثلاً، نجد أنه كان سليل دوحة حاكمة عريقة فى نجد العربية، وأن والده فقد عرشه الذى اغتصبه منه آل الرشيد. وأن عبد العزيز كان أميرًا فقيرًا طريدًا مغلوبًا على أمره، غمرته الحياة، حتى صار يجوب الأقطار والأصقاع المجاورة لملك آبائه المغتصب، خائفًا يترقب. حتى أنه فى وقت من الأوقات، سكن هو وآل بيته والمخلصون القلائل من أتباعه، الربع الخالى المخيف القاسى فى صحراء شبه الجزيرة العربية. ثم مكن له الله فى الأرض، فوثب عبد العزيز بسيفه يومًا على خصمه الطاغية، فقضى عليه. وهكذا

استولى الملك عبد العزيز على الرياض مع حفنة قليلة من الأتباع، وحرر بلاده، ووحد نجداً والحجاز، تحت تاج واحد.. تاجه هو، وأسس المملكة العربية السعودية المترامية الأطراف بسيفه وعدله، وأقام حكمه على شريعة الله، ففتح الله عليه كنوز الأرض. وتفجر البترول الذهب الأسود، وغمر أرض بلاده بسيول لا انقطاع لها من الثروة والرخاء والسلام.

ولقى الملك الكبير عبد العزيز آل سعود، ربه بعد أن خلف من بعده لأسرته وأمته المملكة العربية السعودية، ترفرف عليها ألوية العزة والقوة والاستقرار والنصر. آية من آيات الله للناس، والتاريخ يعيد نفسه. فمن هو كوروش؟

من هو.. قورش؟

قورش أو كيروس الأكبر Cyrus Le Grand أو كوروش الثانى، هو قوروش الأنزانى، مؤسس الامبراطورية الفارسية القديمة، وحاكمها من عام ٥٦٠ ق م إلى حوالى عام ٥٢٩ ق م، أى أنه وجد فى فارس، قبل ظهور الإسكندر المقدونى بحوالى قرنين من الزمان. وقد دامت امبراطوريته هذه من بعده إلى وقت دخول الإسكندر الأكبر فارس فى عهد داريوس الثالث، آخر أكاسرة الفرس من أسرة هتمامنسى.. أسرة قوروش.

وكان قوروش فى صباه راعيًا للغنم، ذلك أنه فقد أباه قمبيز صغيراً. وكان أبوه قد فقد الإمارة التى كان يحكمها من قبل، واغتصبها منه حماه الملك الميدى استياجس وقضى عليه.

وكان الأمير قمبيز قبل هلاكه، متزوجًا من الأميرة الفارسية رائعة الجمال ماندان الميدية ابنة الملك استياجس نفسه، فولدت لقمبيز ابنه قوروش.

وظل قوروش فى صغره فقيراً منبوذا مطارداً، هو وأمه من جده الطاغية عدو أبيه، حتى عثر عليه فاستعبده، وجعله مولى من مواليه، وعبداً من عبيده يستذله ويستخدمه.

وكان استياجس أو استياج: Astyage هذا الحاكم الميدى - نسبة إلى ميديا، والدولة الميدية القديمة هى ولاية كرمنشاه حاليًا فى إيران - يحكم ميديا حوالى عام ٥٨٠ ق.م. وميديا معناها الجبل، وهو اسم معار من الإرامية، كان يطلق على فارس، ثم على الأمبراطورية الفارسية القديمة.

وفى عام ٥٤٩ ق م، ثار قوروش راعى الغنم القديم، على مولاه استياجس، وخلعه من العرش، وهكذا قضى قوروش الذى عرف فيما بعد فى التاريخ باسم قوروش الأكبر ملك انزان. قضى على جده استياجس، وثأر لأبيه قمبيز منه، وبذلك قضى على آخر الملوك الميديين.

والحق أن استياجس، قد اعتلى عرش الميديين، ولكنه بعد أن كان أسلافه يفخرون بعدالتهم ورعاية شعبهم، وبذل كل جهد لاسعاده ورفاهيته. جاء الملك الجديد، بالظلم والقهر والاستبداد والفساد، بينما تمكن قوروش فى ذلك الوقت من حكم انزان، وكان حاكمًا نابها محبوبًا. وكانت انزان أو ولاية انشان الفارسية تابعة للميديين، فسار قوروش فى حكمه بين الناس بالعدل، ويتألف قلوب رعيته بالإحسان، وقد زاد فى محبة الجماهير له: أنه كان وسيما بهى الطلعة، حتى أن الفرس اتخذوه نموذجًا لجمال الجسم، وخلدوه فى فنونهم إلى آخر أيام فنّهم القديم.

أما أستياجس، فقد كان مخنثا. يرتدى الثياب الناعمة المزركشة، ويتثنى فى مشيته ويتمايل تمايل الغوانى. وكان رغم ذلك جبارًا عاتيًا، إذا بطش، لا يرحم. فقد حدث أنه حينما غضب فى إحدى المرات على أحد ولاته ، ذبح ابن هذا الوالى، ثم أرغمه على أكل لحم ابنه الذبيح انتقامًا منه. فخرج الوالى المسكين من الوليمة المشئومة وهو يسرع إلى قوروش، وتحالف معه فورًا، ثم حارب عدوه اللدود الظالم استياجس. وقد انتصر قوروش عليه وخلعه، ووثب على العرش وانتزعه منه.

وهكذا كانت هناك فى القرن السادس قبل الميلاد، قوة جديدة تنشأ فى عيلام.. وعيلام القديمة هى إقليم الأهواز الحالى فى ايران.. وهذه القوة كانت ظهور قوروش على مسرح الأحداث التاريخية بهذه الصورة فى أنشان أو أنزان Anzan .

وهكذا أصبح قوروش الإنزانى، سيد ميديا، ثم وحّد قوروش ميديا وفارس تحت تاج واحد.. تاجه هو، وقد ابتهج الميديون، المغلوبون أنفسهم، وفرحوا لانتصار قوروش العادل على طاغيتهم.

أما اليهود من بنى اسرائيل الأسرى فى بابل يوم ذاك، فقد كانت فرحتهم لا توصف بهذا النصر، وهذه الوحدة. لأنهم وجدوا فيها نبؤة نبيهم دانيال، قد بدأت تتحقق.

وبعد ذلك هاجم قوروش ليديا غربًا فى الأناضول حيث كانت شهرة ملكها

كريسوس: Cresus قد جلبت إلى عاصمته. سارديس: Sardes أكثر اليونانيين ثقافة. وقد استولى قوروش بعد موقعة بتريوم: Pteriumفى قبادوقيا عام ٥٤٧ ق م، على هذه المدينة، وأنهى بذلك دولة ليديا عام ٥٤٦ ق م. ثم اتجه نحو بابل جنوبا التى كانت تعضد ضده كريسوس، بالاتفاق مع مصر، ففتحها وقهر الكدانيين، وأدبهم وأصبح بذلك سيد بابل. وصحت نبؤة النبى دانيال، وتحققت أحلام اليهود فى الحرية والعودة من الأسر فى بابل إلى أورشليم، وبناء هيكل الرب من جديد بأمر قوروش.

أورشليم بناها ملك عربى

وأورشليم أو أورشالم معناها مدينة السلام، بناها الملك العربى المحب للسلام مليك صادق، من اليبوسيين، وكان موحداً بالله يعبد (الله العلى) وقد بارك سيدنا إبراهيم عندما مر بعاصمته، لأن مليك صادق وجده موحداً مثله، فأكرمه كما ذكر فى الإصحاح ١٦. وملك صادق أو مليكصادق يبوسى من الذين كانوا أول من بنى مدينة القدس وسورها القديم، وبعض الأبراج لحمايتها. وكان العرب أول من نزل هذا المنزل الذى بنى فيه الملك (مليكصادق) عاصمته منهم الكنعانيون، ثم العموريون الذين جاءوا جميعاً من الجزيرة العربية إلى فلسطين، منذ أربعة الآف سنة، قبل ميلاد المسيح.

هذا وقد ظلت سيطرة الفرس، على بابل الكلدانية بالعراق إلى عام ٣٣١ ق م حين غزاها الإسكندر المقدونى.

وهكذا نرى قوروش راعى الغنم، بعد أن أصبح ملكًا ووحد ميديا وفارس، قد اتجه غربًا، وحارب الليديين أولاً فى آسيا الصغرى، ثم اتجه شرقًا، حيث حارب فى بلخ (تركستان).

مولد الحركة الصهيونية العالمية

والمعروف عن قوروش أنه آمن بزرادشت وتعاليمه، وتتلخص دعوته، فى عبادة إله واحد: لا شريك له هو (أهورا مزدا) اله النور والسماء. وتقول سيرة زرادشت: أنه كان يتلقى رسالته من اله السماء، وأنه كان ينزل عليه الوحى بواسطة (فاهومانا) كبير الملائكة.

وتم إيمان قوروش بزرادشت النبى فى عاصمته بلخ، وآمن بإله واحد القائل: «أنا الرب وليس آخر، لا إله غيرى». حتى أن أشعياء الثانى نبّى اليهود فى الأسر ببابل، تفاءل بالملك الجديد قوروش وعهده، وقد لعب اليهود دوراً بارعًا بواسطة استرEsther وعشيقها مردوك Merodach أو Mardochée بعد أن أوقعت الملك الطيب القلب قوروش فى حبائلها، فأحبها واستطاعت بهذا التأثير عليه والزواج منه، وبذلك عجلت أمر قوروش، بتحرير بنى اسرائيل جميعًا واطلاق سراحهم من الأسر، واعادة السبى والأسرى منهم إلى أورشليم من جديد، بعد أن أمضوا فى بابل أثر نكبتهم على يد نبختنصر الثانى وجيوشه خمسين سنة.

وهكذا أحرزت الحركة الصهيونية السرية الأولى التى ولدت إبان أسر اليهود فى بابل منذ سبعة وعشرين قرنا، نصرها الأول. أما نصرها الثانى، فكان كما ذكرته التوراة: أن الملكة استير أو استر، قد أنقذت اليهود من هامان الذى كان أضاع اليهود، وعذبهم عذابًا مستمرًا، وانتقمت منه بشنقه عام ٥٢٨ ق.م ويزعم اليهود أن هامان هذا، كان رئيس وزراء قوروش وأنه كان يذبح اليهود فى عهده بأعداد كبيرة، قبل ظهور هتلر بمئات السنين.

ولقد قمت يومًا بزيارة قبر الملكة الغانية استر ومردخاى أو مردوك ابن عمها وعشيقها اليهودى، ولعله كان عمها لا ابن عمها، زرته فى همذان - اكباتانا القديمة - عاصمة ميديا. فوجدت للغرفة بابا، أو مدخلا واطئا منخفضًا بحيث لا يمكن لأحد الدخول منه إلا منحنيًا راكعًا! ولم أفهم لماذا دفنت هذه المرأة مع عشيقها الأفاق، ولم تدفن مع زوجها الملك؟

المهم أن اليهود.. كل اليهود آمنوا منذ ذلك الوقت.. وقت المحنة والأسر فى بابل، مع مولد الحركة الصهيونية العالمية لأول مرة.. آمنوا بعقيدة لا تتزحزح هى أنه لا حياة لهم فى أورشليم ولا سلام. ما لم يثبوا على جيرانهم، والأمم والشعوب المتاخمة لهم، ويغتصبون أرضهم، ويستولون عليها ويستعبدونهم، لتكون لهم اليد العليا من بابل إلى مصر، وأنهم منذ ذلك الحين وهم يترقبون فرصتهم بصبر لا ينفد، ليثبوا وثبتهم ويحققوا أحلامهم، وشعارهم المنقوش فى قلوبهم، قبل أن ينقشوه على مدخل الكنيست: «من النيل إلى الفرات هنا ملكك يا إسرائيل».

هذه هى سيرة الملك قوروش الكبير الذى صرعه سهم طائش قتله، وهو يخمد ثورة

صغيرة فى شمال فارس شرقى بحر قزوين، قام بها الماساجيتيون . Les Massagetes . بعد أن تحالف مع العرب . وزحفت جيوشه على مصر حوالى عام ٥٢٥ ق.م، فى عهد فرعون مصر إحمس امازيس الثانى، وقد فتح مصر ابنه قمبيز، بعد موته . وقد دفن قوروش مؤسس الأمبراطورية الفارسية العظيم فى باسرجاد العاصمة التى بناها قوروش شمال شرقى شيراز بإيران .

وقوروش هذا لم تزل العملة المصرية تحمل اسمه حتى اليوم فى مصر، وتنسب إليه، وهى القروش أو غروش . ولم يزل المصريون يستعملون آلاف الكلمات الفارسية فى لغتهم حتى اليوم كأثر باق من آثار الوجود الفارسى القديم فى مصر، منذ قوروش وقمبيز .

دراسة سريعة :

هذه هى سيرة كلا الرجلين : اسكندر المقدونى، وقوروش الفارسى، استعرضنها باختصار شديد، لنرى مَن من الرجلين هو الذى ينطبق عليه الوصف الذى فصله القرآن الكريم لذى القرنين؟ وسبيلنا لمعرفة ذلك هو القرآن الكريم نفسه .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ [الكهف : ٨٤، ٨٥]

من هذا نفهم بوضوح لا يقبل الشك أن التمكين الإلهى المشار إليه فى هذه الآية الكريمة، كان لقوروش مولى استياجس الميدى، وخادمه راعى الغنم المغمور الفقير، فكون قوروش يصل بعد هذا إلى العرش، والملك العريض، ويجلس على العرش ثلاثين سنة، وينجح فى بناء امبراطورية عظمى موحدة تمتد من شاطئ الدردنيل إلى حدود الصين، وتكتسح العالم القديم كله تقريبًا، فامتلك الفرس تحت لوائه من الهند إلى تونس، ومن بحر العرب إلى روسيا . وتدين لقوته وحكمه مائة وثمان وعشرون أمة كالمصريين والأتراك والأرمن والأكراد والأراميين والغرثيين والسكيثيين والماديين والهركانيين والدانيين والبكتاريين والارغوسيين والثابورين والسوسيين والساسانيين والقادسيين الخ . ونجاحه فى تأسيس أسرة ملكية تتولى حكم هذه الأمبراطورية المترامية الأطراف طوال قرنين كاملين من الزمان، فهذا هو التمكين الربانى حقًا . ولا يمكن أن يسرى هذا الوصف بأى حال من الأحوال أبدا على الإسكندر المقدونى ولا غيره . وكلنا نعرف أن الإسكندر ولد فى فمه

ملعقة من ذهب كما يقولون. فقد ولد أميراً وعاش وليًا للعهد.. وكان هو نفسه ملكًا، ولم يتجاوز التاسعة عشر من عمره.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

ولعل من أهم أسباب التمكين ودوام نجاحه في الحياة، الإيمان والأخلاق.. الثمرة الطبيعية للحكمة.. كما يقول الله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فإذا وازنا على هذا الأساس بين ما نعرفه في سيرة الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطوطاليس، وبين قوروش راعي الغنم المغمور الذي آتاه الله الملك، ومكن له في الأرض. نجد أن الإسكندر كان يعيبه: أنه كان يكره أباه كراهية الموت، لأنه تعقد منه بسبب الشك في بنوته له.

ولقد نسب كثير من معاصري الإسكندر إليه أموراً شائنة، فقد كانت تتمثل فيه القسوة والشر والوحشية. واستباح الطاغية لنفسه طوال حياته الانغماس في الملذات والشهوات والإفراط في شرب الخمر، والتردي في هاوية الشذوذ وجب الخصيان من الفتيان المرد والنساء. وكان في مقدمة شائنيه من معاصريه، كيرتيوس Curtius.

بينما المعروف عن قوروش: أنه كان حريصًا على العدالة والرحمة والتسامح حتى مع أعدائه، فأعاد أسراه جميعًا إلى بلادهم، وحررهم وأعاد بناء هيكل الرب في أورشليم.

وكان طبع الإسكندر ومزاجه – رغم الأعمال العظيمة التي قام بها – يكشفان أحيانًا بصورة بشعة، عن حقيقة شخصيته التي تبدو في صورة وحش كاسر، يرتكب من الأعمال المفجعة ما لا تقره العدالة. ففي إحدى مرات غضبه قتل بيده بلا اتهام ولا محاكمة أقرب أصدقائه وأعزهم لديه، وهو كليتوس: Cleitus طعنه بحربة في قلبه. بالإضافة إلى قتله قائده العظيم بارمينيون، وسماحه بالمذابح الدامية التي أمر بها، فجرت الدماء أنهاراً في طيبة، وماساجا وفي كثير غيرها من المدن التي كثيراً ما كان الإسكندر يعطيها العهود والمواثيق.. مواثيق الأمان والسلام، حتى إذا ما سلمت له، أو استسلمت غدر بها وبطش بأهلها في مذابح رهيبة، يشيب من هولها الولدان وكان يبيحها لرجاله الكواسر المتعطشين لسفك الدماء، والسلب والنهب وهتك الأعراض، وإشاعة الموت والخراب والدمار والفساد في كل مكان.

هذا بينما كان قوروش حريصًا على الأخلاق والعدالة، طيب القلب، رحيمًا ميالاً للسلام والعفو والتسامح.

وهنا أترك الكلام لزعيم الهند « جواهر لال نهرو » الذى سجله فى « لمحات من تاريخ العالم » فى عرض تاريخى سريع كان قد كتبه فى سجنه حوالى شهر يناير سنة ١٩٣١ إلى ابنته انديرا غاندى رئيسة حكومة الهند الآن، قال عن الإسكندر المقدونى ما نصه.

« كان فيليب أبو الإسكندر ملك مقدونيا ملكا قديراً، استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة مملكة قوية، وأن ينشئ جيشًا ذا كفاية. « والفضل فى معظم ما نجح فيه الإسكندر من فتوحات وانتصارات، إنما يرجع إلى مجهود أبيه فيليب من قبله.

« وعظمة الإسكندر أو عدم عظمته هى فى الحقيقة أمر مشكوك فيه، وإذا قسته بمقياسى للبطولة، فهو بالتأكيد ليس بطلاً من أبطالى.

« وقد ثارت ضد الإسكندر مدينة اغريقية واحدة، هى مدينة « طيبة » ولكنه ضربها ضربة قاضية، بفظاعة وقسوة شنيعتين، لقد ضرب هذه المدينة العظيمة، وهدم مبانيها، وقتل كثيراً من رجالها ونسائها وأطفالها، وباع الآفا من أهلها عبيداً، وبهذا العمل البربرى أدخل الرعب والفزع على قلوب الأغريق.

« ولكن هذا وأمثاله من أعمال البربرية التى تخللت هياته، لا تنال اعجابنا، وإنما تثير فينا التقزز والاشمئزاز ».

هذا من جهة الأخلاق.. أما عن الإيمان، فإن الباحث المنصف يجد فى سيرة الإسكندر ابن التسعة عشر ربيعًا: أنه قام بعد انتصاره الرائع فى صور وفتحها قام بتقديم الأضاحى والقرابين إلى الإله الصنم ميلكارت، وأنه سجد له كما يسجد كل وثنى.

حتى إذا فتح مصر ودخلها بجيوشه غازيًا، ذهب إلى ممفيس – وهى الآن قرية ميت رهينة، قرب البدرشين فى الجيزة – منذ حوالى ٢٣٠٠ سنة مضت، وقدم أيضًا القرابين والأضاحى لآلهتها –الثالوث المقدس – بتاح (الإله الخالق عند المصريين القدماء) وشركائه سخمت التى تمثل بشكل لبؤة، ووليدها نفرتم. آلهة ممفيس – المدينة المحصنة ذات السور الأبيض والمائة باب – وهناك فى معبد بتاح سجد الإسكندر للأصنام متعبداً بحضور الكهنة المصريين الذين أعلنوا الإسكندر فرعونا على مصر أى ملكًا شرعيًا على البلاد.

ثم قام الإسكندر بعد ذلك برحلة نيلية فى الفرع الكانوبى للنيل - وكان للنيل سبعة أفرع - حتى إذا بلغ مصبه قرب رشيد، قام الإسكندر باختيار شقة رملية من الساحل غربى بوقير أو أبو قير، حاليًا حيث كانت توجد هناك وقتئذ من قديم قرية صغيرة للصيادين اسمها راكوتى أو راقودة وبالتحديد : راكوتسى Rhacotis فأمر ببناء عاصمته الجديدة الإسكندرية هناك، تحقيقًا لأعز أمانيه . وفعلاً قام مهندسه العظيم دينوقراطيس Deinocrates بتخطيط المدينة وبنائها، وكان ذلك عام ٣٣٢ ق.م.

ثم رحل الإسكندر إلى مرسى مطروح، وكانت تسمى ياراتيونيوم وشق الطريق عبر الصحراء الغربية جنوبًا إلى واحة سيوة، لزيارة معبد آمون . وكانت واحة سيوة قديمًا، تسمى واحة آمون .

وكان معبدًا آمون مقامًا فى واحة صغيرة قرب واحة سيوة، لا فى واحة سيوة نفسها . ولقد اهتدى الإسكندر إلى الواحة بصعوبة، بعد أن كاد يضيع ويهلك هو وجيشه معه، كما هلك من قبل جيش قمبيز بن قوروش فى رمال الصحراء المتحركة وعواصفها . فلما اهتدى للواحة، واسمها واحة الخورمى، قام الكاهن الأكبر المصرى لهذا المعبود المقدس باسباغ التحية التقليدية على الإسكندر، ومناداته بأنه ابن زيوس - آمون . وكان قصد الإسكندر من حجه إلى معبد آمون فى سيوة، وتحمله مشقة السفر إليه، هو استشارة الإله الصنم وسماع نبوءته، ووحيه على لسان الكاهن الأعظم . وهناك قدم الإسكندر خضوعه وإيمانه بالإله آمون، وسجد له أمام تمثاله الحجرى الضخم . وفعل ما كان يفعله الوثنيون من قبل، من عمالقة الإغريق برسيوس وهرقل .

وهكذا نرى الإسكندر يتلقى الوحى، من التمثال المتحرك لرب الأرباب المصرى آمون رع رب طيبة والدولة، ونصير جيوشها الفرعونية، وواهبها الغلبة والظفر . . كما نراه يؤمن بالأصنام ويسجد لها، كأى وثنى . بل ونراه هو وجيوشه خلال زحفه صوب الشرق نحو فارس والهند، نرى الإسكندر وجميع جيشه يسجدون لنار النفط التى لا تخبو . . عندما مروا بها فى أبشرون بجوار باكو الحالية وعبدوها باعتبارها مقدسة .

ثم نرى الإسكندر فى مرحلة أخرى بعد قليل وهو فى سوس Susse عام ٣٢٤ ق.م يصدر مرسومًا ملكيًا إلى جيوشه ورعاياه فى كل مكان . . فى المدن والأقاليم التى فرض عليها سلطاته بقوة السلاح، يأمرهم فيه بعبادته، وتأليهه والسجود له . وزعم الإسكندر

فى هذا المرسوم أنه أصبح هو الإله ديونيسوس بالذات.

وهو تصرف لا يوجد ما يبرره، الأمر الذى أثار ضده سخط واستياء الجيش كله، مما أغضب الإسكندر، وحطم كبرياءه، لدرجة الجنون فقام بتسريح الجيش كله، وأعفاه من خدمته، وهذه حالة نادرة وشاذة فى تاريخ الطغاة.

هذا بينما كان قوروش يؤمن بإله واحد، لا شريك له. هو (اهورا مزدا) إله النور والسماء، ويعبده ويخشاه، لأنه كان يقول: «أنا الرب وليس آخر، لا إله غيرى».

وكان يؤمن بزراد شت النبى الذى يأتيه الوحى من السماء، ويدعو لعبادة إله واحد، ويأمر بعمل الخير، والابتعاد عن الشر، كل ذلك بواسطة فاهومانا كبير الملائكة.

قوروش هو ذو القرنين

فمن إذن من الرجلين الإسكندر، أم قوروش، يستحق أن يشرفه الله سبحانه وتعالى بندائه ومخاطبته بقوله عز من قائل: ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** ﴾ [الكهف: ٨٦]؟

وإذا كان هناك شخص ثالث آخر.. فمن يكون؟

إن تاريخ الشرق الأوسط كله فى التوراة، لا يسمح باحتمال وجود أى شخص ثالث غير قوروش والإسكندر، يمكن أن يكون ذو القرنين أحدهما. وقد بين القرآن الكريم حكمه البات فى هذا الأمر.. ووصفه التفصيلى الدال عليه.. وذلك فى سورة الكهف، وأهم صفاته: أنه إنسان كبير القلب عادل يؤمن بالله الواحد الأحد، ولا يعبد أو يسجد لسواه.. جدير بشرف مخاطبة الله سبحانه وتعالى، وندائه له، وتكليفه بالإصلاح فى الأرض بعد أن مكنه سبحانه وتعالى من أسباب كل شىء يريده.

إلى مغرب الشمس:

إننا إذا تتبعنا مسيرة الأحداث، ومقدار موافقة آيات القرآن الكريم عليها. وجدنا أن الله تعالى وتبارك، أخبرنا فى محكم تنزيله – مؤيداً بذلك ما جاء من قبل فى التوراة – بأن ذا القرنين بلغ أولاً مغرب الشمس، يعنى أنه اتجه أول ما اتجه فى حروبه ومسيره العسكرى، صوب الغرب. فإذا بحثنا عن هذا الاتجاه ومَن من الإسكندر المقدونى، أو قوروش سار نحوه فى مساراته العسكرية؟ نجد أن الإسكندر خرج من مقدونيا إلى

الشرق، فاتحا اليونان وآسيا الصغرى، فى طريقه بعد ذلك جنوبًا إلى سوريا ومصر، ثم إلى الشرق من جديد. فاتحا العراق وإيران وأفغانستان وباكستان فى شبه الجزيرة الهندية، ثم عاد إلى سوسا فى فارس – إيران – ثم إلى بابل فى العراق أى أنه اتجه آخر المطاف نحو الغرب، حيث مات.

أما قوروش الفارسى، فقد اتجه غربًا من اللحظة الأولى، فانطلق من فارس فى حروبه مع ليديا الواقعة فى الأناضول بآسيا الصغرى، حتى وصل فى انتصاراته على الليديين إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وهناك لابد أنه شاهد أحد الخلجان الضيقة الكثيرة عند ازمير، وقت الغروب. حيث يخيل للرائى هناك حتى اليوم أن الشمس وهى تغرب فى تلك الجهة، كأنها تغرب فى عين حمئة، لأن تفتت صخور الشاطئ هناك، يجعل الماء مسودًا معكرًا، مما يطابق وصف الآية القرآنية الكريمة لهذا المكان، فضلاً عن أن طبيعة الشاطئ وتعاريجه عند خليج ازمير الصغير بالذات يشبه فى رسمه شكل العين.

أما القوم الذين وجدهم قوروش عند مغرب الشمس، أى فى ليديا فكانوا من اليونانيين أصحاب الفكر والحضارة الإغريقية، فاتخذ فيهم قوروش حسنا، اكراما لما كانوا عليه من علم ومدنية، فتسامح معهم كما أخبرنا القرآن الكريم، ولم يعذبهم أو يرهقهم[1].

فلما بلغ مطلع الشمس بعد فتح ليديا، اتجه قوروش إلى بلخ (بتركستان) حيث كانت تعيش هناك بعض القبائل الرُّحَّل شديدة المراس التى كانت تقلقه بغاراتها المتكررة على حدود بلاده الشرقية فأخضعها. ولما كان رجال هذه القبائل رحلا، لا بيوت ثابتة لهم يسكنونها، فقد وصفهم القرآن الكريم بقوله؟: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ [الكهف: ٩٠] أى منازل مبنية أو مستقرة.. وهذا ينطبق وصفه على قوروش لا الإسكندر.

السد.. بين الحقيقة والخيال:

يصف القرآن الكريم المرحلة الأخيرة لذى القرنين بأنه يوجد مضيق بين جبلين أى

---

(١) لفظ الآية ﴿**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾ [الكهف: ٨٦–٨٨] وهكذا أفادت الآية أنه قسمهم نوعين: ظالمًا أى مشركا يعذبه جزاء شركه. ومؤمنا صالحًا يلين له القول، ويعامله معاملة حسنة.

صدفين فيه ممر تعبر منه أقوام همج من آسيا، يعيثون فساداً، فقام ذو القرنين ببناء سد فى هذا الممر، منع عن أهالى هذه المنطقة خطر الغزو الداهم الذى كان يتهددهم دائمًا من هذا الممر، ومنع شرهم.

وبقدر ما اختلفت آراء المفسرين والمؤرخين فى الماضى حول شخصية ذى القرنين.. اختلفوا كذلك حول السد الذى بناه، وجاء ذكره فى القرآن الكريم.. وإن كانت التوراة لم تذكره، ولم تشر إليه على الإطلاق.،

ومن أعجب ما قرأت وسمعت عن السد: أن بعضهم اعتبر هذا السد، سداً خياليًا. كما زعم آخرون: أن هذا السد إنما هو سد رمزى فى القرآن بين الخير والشر! وقال البعض: أنه فى الصين ظنا منهم: أنه سور الصين العظيم، بينما المعروف أن جدران هذا السور تمتد حوالى ثلاثة آلاف كيلو متراً على حدود الصين، ومنغوليا. وليس هذا سداً كما وصفه القرآن، بل هو سور هائل، بناه أحد ملوك الصين القدماء حوالى عام ٢٥٠ قبل ميلاد المسيح، أى بعد قرن تقريبًا، من موت الإسكندر، وثلاثة قرون من موت قوروش.

كما أن آخرين زعموا أن هذا السد موجود فى شمال افريقيا من تونس والمغرب. وأن يأجوج ومأجوج أقوام من الجن يحاولون فى كل يوم عبثا تخطى هذا السد، فلا يستطيعون له نقبا. أو أن يأجوج أو جوج، هو ملك قبيلة يأجوج الذى طالما حرم جيرانه السلام والأمن، بسبب عدوانه عليهم، وغزواته ضدهم، وفى الحقيقة: أن هذا كله وهم، وإغراق فى الخيال.

أما حقيقة هذا السد، فإنها بسيطة وواضحة للغاية.. فإنه لما جاء قوروش الملك الأنزانى الكبير، وتتابعت انتصاراته، واشتهر أمره فى مشارق الأرض ومغاربها. وعرف بين الناس بعدله ورحمته، وحبه للإنسانية والتسامح والسلام. هرع إليه أهل البلاد الواقعة جنوب هذا الممر، وطلبوا منه العمل على حمايتهم من غارات جيرانهم أهل الشمال العدوانية. ولما كان هذا الممر يقع فى مضيق بين جبلين من سلاسل جبال القوقاز الممتدة بين بحر الخزر (قزوين) أو البحر الهيركانى، كما كان يسمى فى زمن قوروش، وبين البحر الأسود. فقد أقام قوروش سداً منيعًا، ورد ما مصفحا بالحديد، قطع به دابر هجمات الغزاة، وغزوات المعتدين من قبائل آسيا التى استمرأت الحرب الخاطفة مع جيرانها فى الجنوب، وخاصة مأجوج وهم من المغول قصار القامة الشداد، ذوى البأس

والعنف. ويأجوج من قبائل الروس طوال القامة، من عمالقة سيبريا الجبابرة. أما طول هذا السد، فقرابة المائة متر فقط.

ولما كان أهل هذه المنطقة التى أقيم فيها السد، وهم من الأرمن. ليسوا على شيء فى ذلك الوقت من التحضر، فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ **لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا** ﴾ [الكهف: ٩٣]. ومن الواضح أن الإسكندر الذى وصل فى زحفه فى آسيا الوسطى إلى نهرى جيجون وسيحون، جنوبى بحر خوارزم، وهو الآن بحر أورال.. لم يصل أبداً إلى هذه المنطقة التى بنى فيها الملك قوروش السد، قبل وجود الإسكندر نفسه، بقرنين من الزمان. لأن الإسكندر كان يسرع الخطى فى زحفه نحو هدفه الأكبر، وهو غزو الهند، حينما مر فى آسيا الوسطى، متجها نحو الهند، ماراً بجهة باميان وكابول عبر ممر خيبر.

ومن الثابت تاريخيًا: أنه لا يوجد فى أى مكان مر به الإسكندر طوال حياته، أى سد ينسب إليه. ولا يوجد أى سد آخر، فى هذه المنطقة التى كانت مسرح الأحداث العسكرية التى حفظها لنا تاريخ تلك الحقبة من الزمن، التى عرفت الإسكندر وقوروش وحياتيهما الحافلة. إلا السد الذى بناه قوروش فى شمال إيران بأرض أرمينيا، والذى ينطبق عليه وصف القرآن الكريم. وهو موجود حتى اليوم، فى ذلك المضيق، وفى ذلك الممر بين جبلين من سلسلة جبال القوقاز، بين بحر قزوين والبحر الأسود. وهذا السد يسمى هناك حتى اليوم «سد غورائى» نسبة إلى غوروش، وهو الملك قوروش الأنزانى الفارسى، لا الإسكندر المقدونى.. وبهذا لم يعد أدنى شك فى أن ذا القرنين الذى عناه يهود يثرب، وذكره القرآن الكريم، هو قوروش. وإلا فدلونى بربكم على السد الذى بناه الإسكندر، إن كان هناك سد آخر. دلونى إذن.. أين هو.

ومتى وصلنا فى بحثنا إلى هذا الحد نذكر قوله تعالى: ﴿ **قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ [الكهف: ٩٨].

ولعل وجود هذا السد وبقاءه قائماً حتى الآن هناك، فى ممر جبال القوقاز.. تصديق لقول الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن بقاء السد إلى مجئ وعد الله الحق.. وشاهد على ذلك. كما أنه يجب وقد وصلنا فى بحثنا إلى هذا الحد، أن نضرب صفحًا عن جميع المزاعم والأوهام التى قيلت عن السد من قبل، وإسقاط سائر الأسئلة القديمة المطروحة عن ذى القرنين، وعدم الرد عليها، أو الالتفات إليها، فإن ذا القرنين، والحالة

هذه – كما بيّنا بوضوح – ليس هو الإسكندر المقدونى. وبالتالى لا يمكن أن يكون نبيا، ولا ملكا من ملوك تبع، ولا هو مَلَكٌ من الملائكة(١). كما قيل فى الماضى من بعض الناس. لا يمكن أن يكون ذو القرنين واحداً من هؤلاء. وإنما هو قوروش الإنزانى الفارسى، بلا شك ولا جدال. وهذا هو ما أرجحه نتيجة دراستى وبحثى وأبحاث من سبقنى من العلماء المحققين الثقات، وأقطع بصحته وصوابه..

وأستطيع أن أجزم بأن كل مَن قال من قبل بأن ذا القرنين المقصود فى القرآن الكريم هو الإسكندر الأكبر المقدونى، أو أحد آخر غير قوروش.. أجزم بأنه جانبه الصواب، وخانه التوفيق.

لماذا لُقّب بذى القرنين؟

بقى أن أوضح فى نهاية كلمتى هذه: أن الإسكندر كان يلقب عند معاصريه وبعدهم بذى القرنين، ولعل هذا اللقب عرف به رمزاً لقوته البدنية، أو تمجيداً له بعد تكريمه بمعرفة كهنة مصر الفرعونية، فى معبد آمون – رع – فى سيوة، حيث كان الكبش المصرى فى وادى النيل يرمز للقوة والسلطان، وكانت كباش مصر قديماً فى عصور الفراعنة ضخمة القرون، قوية البنية من النوع المعروف علميًا باسم أوفيس بلاتيرا ايجيبتياكا Ovis Platyra Aegyptiaca

وقيل: أن خوذة الإسكندر الأكبر الذهبية، كان منقوشًا على جانبيها قرون بارزة، رمزًا للقوة والسلطان. وإن كانت الحقيقة التاريخية تؤكد أن كهنة آمون، وضعوا على رأس الإسكندر تاجا له قرنان مقوسان كقرنى كبش طيبة، إعلانا منهم بتتويج الإسكندر فرعونا على مصر، وابتهاجًا بانتصاره على أعدائهم الفرس، وتخلصهم من الحكم الفارسى البغيض لمصر، وقتئذ على أيدى الإسكندر الفاتح. ومما يذكر: أن أطلال معبد آمون، وقاعة الاحتفال بتتويج الإسكندر التاريخية به، لم تزل قائمة وموجودة حتى الآن فى واحة الخورمى، فى سيوة بالصحراء الغربية بمصر.

---

(١) لم يقل أحد من العلماء: إن ذا القرنين كان من الملائكة، نعم قال بعضهم بنبوته، وهو قول ضعيف. ولعل الكاتب انتقل ذهنه إلى الخضر عليه السلام، فقد قال بعض العلماء: إنه كان من الملائكة، وهو قول ضعيف، بل ساقط.

وربما عرف الإسكندر بذى القرنين.. بعد غزوته لفارس.. فلعله ورث اللقب ضمن ما ورثه من تركة قوروش.. فالمعروف أن قوروش أيضًا كان له قرنان، قبل الإسكندر بمائتى سنة. إذ أنه لم يكن الإسكندر وحده فى التاريخ القديم ذا قرنين، بل كذلك كان آمون مثلاً إله كوش، كان له قرنان، وكان يرمز إليه بهيئة الكبش ذى القرنين، واسمه القديم بين المعبودات المصرية، هو بيتى.

وثور منيفس، أو عجل أبيس Apis كما يسميه العامة، أو جالى إله الخير، وإله مدينة هيليوبوليس، وهى اون القديمة On – وهى الآن قرية عرب الحصن، بجوار عين شمس، من ضواحى القاهرة – كان له قرانان، بينهما قرص الشمس، تجسيداً للإله رع إله الشمس. وعجل ابيس أو جالى – اسمه الفرعونى القديم هو: كا–هاه– كا. ولقد سمى باسمه شهر كيهك، فى التقويم القبطى فى مصر المعمول به حتى اليوم، وهو الشهر الرابع فى السنة القبطية.

والأمثلة على ذلك كثيرة، لا يحصرها عد. فكان للآلهة ايزيس قرنان، ولكل من الملكة الفاتنة الجمال نفرت –ايتى، يعنى الجميلة قادمة، أو نفرتيتى، والأميرة بنت – عنت ابنة رمسيس الثانى، والملكة كليوباترة السابعة، وعشرات غيرهم من أميرات وملكات وأمراء وملوك فى مصر وغيرها قديمًا، كان لهم جميعًا قرونًا من الأمام إلى الخلف، كما هو ثابت فى آثارهم القديمة السليمة الموجودة حتى الآن، وذلك غير مَن كان لهم قرون مقوسة.

وكذلك كان قوروش الثانى الأكبر، ذا قرنين. وهكذا صورته رؤيا النبى دانيال، وسفر أشعياء فى التوراة.. وهكذا لقبه القرآن الكريم.

وقد عثر حديثًا على بعض النقوش الأثرية لقوروش منحوتة فى الصخور وله قرنان، كما عثر له على تمثال بشاطئ نهر مرغاب باصطخر – پرسپوليس – عاصمة الفرس القديمة، على بعد خمسين ميلا منها، ووجد لهذا التمثال قرنان أيضًا تمامًا، كما وصفته التوراة. إلا أن الفارق بين قرنى قوروش فى آثاره وتمثاله، وفى التوراة، وبين قرنى الإسكندر، هو: أن قرنى الإسكندر مقوسان على جانبى رأسه مثل قرنى الكبش.. أما قرنا قوروش فهما من الإمام وإلى الخلف.. يخرجان من وسط الرأس وقمته تماما: وأحد

بارز يمتد إلى الإمام فوق الجبهة، والآخر يخرج مثله من وسط الرأس ويمتد إلى الوراء، فيشكل القرنان حرف باء العربية فوق الرأس.

ولا عجب فى ذلك، فهكذا وصف الوحى قرنى الملك قوروش للنبى دانيال فى رؤياه، كما جاء فى التوراة، وهكذا أيضًا كان الفنان المصرى القديم، قبل زمن دانيال بآلاف السنين يرسم صوره المعبود انوبيس فى الآثار المصرية، بشكل جسم آدمى له رأس ابن آوى وله فوق رأسه قرنان بارزان من وسط الرأس إلى الإمام، وإلى الخلف تمامًا، مثل قرنى قوروش، فى صورة المنحوتة، وفى تماثيله الأثرية التى صنعها قديمًا الفنان الفارسى. وانوبيس كان رب الجبانة، وإله مصر الوسطى والمنيا عند قدماء المصريين.

والمعروف من آثار فارس الباقية حتى الآن: أنه كان قبل قوروش بقرون سحيقة فى القدم، كان السوميريون القدماء والاكاديون الأوائل، كان من أمرائهم مَن يلبس فوق رأسه التيجان، ذوات القرون البارزة، من وسط قمة الرأس إلى الإمام، وإلى الخلف، بشكل حرف باء كبير. وذلك عكس القرون الحلزونية الجانبية، الشهبية بقرون الكباش التى نعرفها جميعًا ونميزها بسهولة.

أما هذه القرون البائية الشكل، الغريبة المنظر، التى توج بها قوروش نفسه، واستعملها غيره من قبل سواء فى مصر الفرعونية، أو فارس، فقد كان يسميها الملك الكاسى.. اجام كاكزين عصابة السيادة، أو علامة الألوهية ورمزها.

وحسبى هذا القدر من البيان، للدلالة على أن الملك قوروش الفارسى.. وقوروش وحده.. هو يقينًا.. ذو القرنين.. المذكور فى القرآن الكريم والله أعلم.

هذا بحث مفيد، كشف النقاب عن وجه الحقيقة، فى تعيين ذى القرنين. بعد أن كثرت فيه الآراء، وتعارضت. وذهب كثير من المفسرين إلى أنه الإسكندر[1] المقدونى.

(١) قال أبو الريحان البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ذو القرنين هو أبو كرب بن عمير بن افريقش الحميرى وهو الذى افتخر به تبع اليمن، حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفند
لغ المغارب والمشارق ... أسباب ملك من حيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خلب وثأطة حرمد

قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب؛ لأن الملقبين بكلمة «ذى» كانوا من اليمن. واختار =

وكنت لا أرتاح إلى هذا الرأى، لأن الإسكندر كافر، وذو القرنين الذى تحدث عنه القرآن مؤمن. بل قيل: إنه نبى، أخذًا بظاهر قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف: ٨٦] فإن يقتضى انه أوحى إليه بهذا القول. والصحيح أنه ليس بنبى، وبلغ إليه ذلك القول بواسطة نبى كان فى عصره. قيل: هو الخضر. وقيل: نبى من أنبياء بنى اسرائيل. ثم إن خط سير الإسكندر، عكس خط سير ذى القرنين المذكور فى القرآن. فكيف غفل المفسرون عن هذا؟ لكنه التقليد، يوقع صاحبه فى الخطأ من حيث لا يشعر. حكى قول عن كعب أو غيره: أن ذا القرنين هو الإسكندر، فنقله المفسرون تقليداً من غير تمحيص. وكم فى كتب التفسير من أقوال ضعيفة، بل ساقطة، يجب حذفها، وتنزيه التفسير عنها.

أما الردم الذى بناه ذو القرنين، فقد كثرت فيه الأقاويل أيضًا، حتى اختار بعض المعاصرين التوقف عن الكلام فيه، واعتبره من المشكلات التى تترك للزمان، يكشف عنها ويجليها للعيان.

والواقع أنه لا إشكال فيه، فموقعه -كما تبين من هذا البحث - فى شمال إيران بأرض أرمينيا، بين جبلين، من سلسلة جبال القوقاز. وقد وصل إليه بعض الناس وشهدوه عيانا. ففى العهد النبوى، روى الطبرانى فى مسند الشاميين من طريق قتادة عن رجل عن أبى بكرة الثقفى رضى الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله رأيت الردم. قال «انعته لى» قال: كالبرد المحبر، طريقة حمراء من نحاس، وطريقة سوداء من حديد. قال (رأيته).

وفى عهد الخليفة الواثق العباسى، بعث بعض أمرائه، وجهز معه جيشًا سرية. لينظروا إلى السد، ويعاينوه وينعتوه له. فوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك. حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد، ومن النحاس.

وفى عصرنا هذا، وصل إليه أبو الكلام أزاد وزير المعارف السابق للهند، ورآه ومر فوقه وحواليه بطائرة. وبعد هذا لم يبق شك فى تعيين محله وتحديده.

وإنما يبقى الكلام فى مسائل، تشكل على بعض الناس، ونحن نزيل الإشكال عنها.

= القول صاحب كشف الظنون، وقال: إنه فى عصر إبراهيم عليه السلام، وأنه اجتمع به فى مكة وتعانقا. اهـ.

قلت: لكن لم يثبت أنه بنى سدان، فلا يكون هو المذكور فى القرآن

حديث منكر فى حفر الدوبيان نكارته

(١)

روى أحمد والترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة –رضى الله عنه–: أن رسول الله ﷺ قال (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس. قال الذى عليهم: ارجعوا. فستحفرنه غداً، فيعودون فيجدونه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس. قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً انشأ الله، فيستثنى. فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه. فيحفرون ويخرجون على الناس) الحديث صححه الحاكم وابن حبان، وإسناده جيد. لكن قال الترمذى: غريب، وقال الحافظ ابن كثير: فى رفعه نكارة، يعنى: أنه لا يصح رفعه إلى النبى ﷺ وذلك لوجوه:

أحدها: أنه مخالف للآية، فإنها تفيد أنهم لم يستطيعوا ارتقاء السد ولا نقبه ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [الكهف: ٩٧] والحديث يفيد أنهم قدروا على نقبه وحفره، وهى مخالفة صريحة لا تحتمل التأويل.

ثانيها: أنه ليس من المعقول أن يمكثوا مدة من الزمان لا يعلم نهايتها إلا الله، وهم يحفرون السد كل يوم، لا يكلون ولا يملون، ولا شغل لهم إلا ذلك، حتى قرب قيام الساعة، هذا مما يشهد العقل ببطلانه. والنبى ﷺ لا يقول الباطل، ولا ينطق به.

ثالثها: أن الآية تقول: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي** ﴾ [الكهف: ٩٨] فهى صريحة فى أن الله تعالى يدك السد عند مجىء الساعة، والحديث يفيد أنهم يحفرونه، والحفر غير الدك .وهى مخالفة صريحة أيضاً لا تقبل التأويل.

رابعها: أن السد بنى ليمنع يأجوج ومأجوج عن جيرانهم الذين اشتكوا منهم، إلى ذى القرنين اقرأ قوله: ﴿ **فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** ﴾ [الكهف: ٩٥] ولذلك بناه بين الصدفين أى الجبلين، وهو محل عبورهم إلى جيرانهم. ومعنى هذا: أن يأجوج ومأجوج، لم يقفل عليهم البلد بسور يمنعهم من الاتصل بالعالم ، بل بلدهم مفتوح من جميع جوانبه ، يخرجون من أيها شاؤا،ماعدا الممر الذى يوصلهم إلى جيرانهم، فإنه أغلق عليهم بذلك الردم.

يأجوج ومأجوج يخرجون على الناس من طريق غير السد ولا يحفرونه

«٢»

وبناء على ذلك لا يتوقف خروجهم فى آخر الزمان، على حفر الردم أو دكه. بل يخرجون وهو قائم بحاله، لم يمس. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] لا يفيد حفر الردم أو اندكاكه، لأنه ليس مقفلا عليهم بقفل. ولأن طوله نحو مائة متر، وليس من المعقول أن ردما هذا حاله فى صغر المسافة، يحجز شعبا تعداده ملايين من الناس، عن الاتصال بالعالم، ولا يجدون مخرجا منه إلا بحفره أو دكه!!

ولكن معنى فتحت يأجوج ومأجوج: تيسر لهم الخروج، وتهيأت أسبابه، واتجه تفكيرهم إلى غزو الناس، والإفساد فى الأرض. وبعبارة أخرى: إن يأجوج ومأجوج الآن غير متجهين إلى غزو الناس، بل هم يتصلون بهم فى تجارة أو سياحة أو غير ذلك من الأغراض، وهم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا برسله، ولا بدينه. فإذا اشتد بأسهم، وزاد طغيانهم، فكروا فى غزو العالم، ونشر مذهبهم بالقوة. ويلاحظ أنهم لا يخرجون للغزو إلا بعد أن يقضى عيسى عليه السلام، على النصرانية، فلا يبقى على وجه الأرض دولة مسيحية قوية تقف فى طريقهم كأمريكا مثلا. فحينئذ يخرجون، ويفتح لهم طريق الغزو. فيقال: فتحت يأجوج ومأجوج: أى فتح لها طريق الغزو.

فإن قيل: كيف تفعل بقوله ﷺ (ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا) فإنه يقتضى فتح الردم عند خروجهم؟

قلت: فى الحديث كناية لطيفة، وإشارة عجيبة. أما الكناية، فإن الردم لما كف شر يأجوج ومأجوج عن جيرانهم، وحجز بينهم. صار رمزاً لمنع الشر، وحجز الفتنة. فإذا ظهرت بوادر شر وفتنة، قيل: فتح من ردم يأجوج ومأجوج كذا، بحسب قوة تلك البوادر وضعفها. وعلى هذا الأسلوب، جاء الحديث. وأما الإشارة، فإنه يشير إلى واقعة التتار التى هاجموا فيها بلاد المسلمين، فارس والعراق والشام وغيرها، وقضوا على الخلافة

العباسية ببغداد، وقتلوا ما ينيف على مليون نفس من المسلمين، وأتلفوا آلاف الكتب العلمية فى التفسير والفقه والحديث والتوحيد وسائر العلوم. والتتار من جنس يأجوج ومأجوج. وإذا كانت هذه الواقعة، على شدتها وفظاعتها، يعتبرها الحديث فتحا صغيراً فى ردم يأجوج ومأجوج. فما ظنك إذا خرجوا آخر الزمان، وهم من كل حدب ينسلون كما وصفهم القرآن؟!.

يأجوج ومأجوج من جنس البشر

«٣»

تكلم الناس فى يأجوج ومأجوج كلامًا كثيرًا، وهولوا فى وصفهم تهويلا كبيرًا. ومن أعجب ما قيل فيهم: ما ذكر ذكره الإمام النووى رضى الله عنه، فى فتاويه، حيث قال: يأجوج ومأجوج من أولاد آدم من غير حواء، عند جماهير العلماء. فيكونون إخوتنا لأب اهـ. قال الحافظ ابن حجر: ولم يرد هذا عن أحد من السلف، إلا عن كعب الأحبار. وذلك أنه قال: إن آدم نام فاحتلم، فامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله منها يأجوج ومأجوج اهـ. وهذا كلام باطل، لا ينبغى الالتفات إليه. فليس على ظهر الأرض من إنسان، إلا وهو من ولد آدم وحواء. وفى حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه رفعه «ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب والروم وفارس، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة» وهو حديث ضعيف. على أن المسألة لا تحتاج إلى دليل، لأنها من البديهيات. وقال كعب أيضًا: يأجوج ومأجوج ثلاثة أصناف: صنف أجسادهم كالأرز -بفتح الهمز وسكون الراء- وصنف منهم أربعة أذرع فى أربعة أذرع، وصنف يفترشون إحدى آذانهم، ويلتحفون بالأخرى. ورواه بعض الرواة عن حذيفة مرفوعًا، وهو غلط. فلم يصح عن النبى ﷺ حديث فى هذا المعنى. وإنما يروى عن الذين يروون عن الإسرائيليات كابن عباس، وابن عمرو ابن العاص، وكعب وغيرهم. وأما حديث ابن مسعود رفعه (إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم من صلبه ألفًا من الذرية) فهو وإن صححه ابن حبان حديث منكر، لا يصح رفعه، وإن كان إسناده صحيحًا.

ومثله حديث عمرو بن أوس عن أبيه رفعه (إن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاءوا ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفًا فصاعداً) رواه النسائى، وهو حديث منكر، وإن كان اسناده صحيحًا. فليس من المعقول أن يتحدث النبى ﷺ عن كثرة جماع يأجوج ومأجوج، لأنه ليس فيه مصلحة دينية، ولا حكمة اجتماعية. بل الجماع مما يستر، ولا يذكر. كما أنه لا يعقل أن يترك الرجل منهم ألفًا من صلبه، ولو كان معمراً، فإننا نعرف من الناس، من تزوج عدة نساء، وخلف من كل واحدة منهن ولدين وأكثر، ومع ذلك لم يزد ما تركه من الذرية على مائة وخمسين، وكان مضرب المثل فى كثرة الإنجاب. وهل يأجوج ومأجوج، إلا أمة من البشر، يخضعون للقوانين البشرية التى تنتظم العالم كله. وقد يكونون كثيرى النسل، كالصين مثلاً، وقد يكون فيهم عمالقة وأقزام، كوجودهم فى غيرهم من الأمم. لكن ليس بتلك الصورة التى تحكيها الإسرائيليات، حتى إن كعبا يقول: انهم يلحسون السد بألسنتهم فيخرقونه!!

والحقيقة أن خطر يأجوج ومأجوج، ليس فى ضخامة أجسامهم، ولا فى افتراش أحدهم لأذنه، والتحافه بالأخرى، ولا فى قدرة لسنانهم فى خرق الحديد والنحاس باللحس!!! ولكن خطرهم فى أمرين:

١- أنهم أمة ملحدة فاسدة.

٢- خروجهم فى آخر الزمان، لنشر إلحادهم وفسادهم بالقوة، وضعف الناس عن مقاومتهم.

قصة عجيبة

قال أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن بشران البغدادى: حدثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك، ثنا محمد بن عبد ربه الحضرمى، ثنا بشر بن عبد الملك، ثنا موسى بن الحجاج، قال: قال مالك بن دينار: ثنا الحسن عن أنس بن مالك قال:

كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة، ومن المدينة إلى بلاد الشام. ولا يصحب القوافل، توكلا منه على الله عز وجل. فبينا هو آت من الشام، يريد المدينة. إذ عرض له لص على فرس، فصاح بالتاجر: قف، فوقف له التاجر، وقال له:

شأنك بمالى، وخل سبيلى. فقال له اللص: المال مالى، وإنما أريد نفسك. فقال له التاجر: ما ترجو بنفسى؟ شأنك والمال، وخل سبيلى. فقال له اللص، مثل المقالة الأولى. فقال له التاجر: أنظرنى حتى أتوضأ وأصلى، وأدعو ربى عز وجل. قال: افعل ما بدالك. فقام التاجر، وتوضأ وصلى أربع ركعات، ثم رفع يديه إلى السماء. فكان من دعائه، أن قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا فعالاً لما يريد: أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التى قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التى وسعت كل شيء، لا إله إلا أنت. يا مغيث أغثنى – ثلاث مرات – فلما فرغ من دعائه، إذا بفارس على فرس أشهب، عليه ثياب خضر، بيده حربة من نور، فلما نظر اللص إلى الفارس، ترك التاجر، ومر نحو الفارس. فلما دنا منه، شد الفارس على اللص، فطعنه طعنة أذراه عن فرسه، ثم جاء إلى التاجر. فقال له: قم فاقتله، فقال له التاجر: من أنت؟ فما قتلت أحدًا قط، ولا تطيب نفسى لقتله. فرجع الفارس إلى اللص فقتله. ثم جاء إلى التاجر، وقال: اعلم أنى ملك، من السماء الثالثة، حين دعوت الأولى، سمعنا لأبواب السماء قعقعة. فقلنا: أمر حدث، ثم دعوت الثانية، ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار. ثم دعوت الثالثة، فهبط جبريل علينا من قبل السماء. وهو ينادى: من لهذا المكروب؟ فدعوت ربى عز وجل أن يولينى قتله، واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا فى كل كربة، وكل شدة، وكل نازلة، فرج الله تعالى عنه. وجاء التاجر سالمًا غانمًا، حتى دخل المدينة، وجاء إلى النبى ﷺ، فأخبره بالقصة، وأخبره بالدعاء. فقال له النبى ﷺ «لقد لقنك الله عز وجل اسماءه الحسنى التى إذا دعى بها أجاب وإذا سئل بها أعطى».

قلت: لا شك أن الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث المظلوم إذا استغاثه. لكن هذه القصة موضوعة، وضعها أحد الرواة، بين مالك بن دينار، وابن السماك. ومن أراد أن يدعو بالدعاء المذكور، فلا بأس بذلك، بشرط ألا يعتقد وروده عن النبى ﷺ. لأن الصلاة والدعاء مرغب فيهما، على وجه العموم. بحسب نصوص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة.

والدعاء المسبوق بصلاة، أقرب إلى الإجابة. وكان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، يلتمس فيها الروح والراحة، والفرج والاطمئنان. فالالتجاء إلى الصلاة عند الكرب، سنة عن النبى ﷺ. والحمد لله رب العالمين.

تتمة

سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ﴾ [الرحمن: ٣٣] وبينا أنها تتحدى الثقلين فى الدنيا. ثم وجدنا رأيا آخر بأن التحدى فيها، إنما يكون يوم القيامة.

روى جويبر عن الضحاك فى وصف يوم القيامة واجتماع الخلائق فى الموقف. قال: فينزل الملك ومجنبته اليسرى جهنم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قطراً من أقطارها، إلا وجدوا صفوفا قياماً من الملائكة. فذلك قوله ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ﴾ لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] والسلطان: العذر. وهذا واضح فى أن الآية يحصل التحدى بها يوم القيامة. وقد يؤيده قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ [الرحمن: ٣١] أى سنقصد لكم أيها الثقلان بالتحدى والعذاب. وإنما يكون ذلك فى الآخرة لا فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تم بحمد الله

كتاب خواطر دينية

(الجزء الثانى)

شيوخ المؤلف

والده الإمام العارف القدوة أبو عبد الله محمد بن الصديق الحسنى، رضى الله عنه. حضر عليه فى شرح العارف ابن أبى حمزة على مختصره للبخارى، وشرح الرسالة القيروانية فى الفقه المالكى، لأبى الحسن الشاذلى. وشروح التلخيص فى علوم البلاغة، والمغنى فى النحو. وأخذ عنه ورد الطريقة الصديقية. ومرنه على البحث ومعرفة المظان، وكان يملى عليه الفتاوى التى يبعث بها إلى مختلف البلاد الأفريقية.

شقيقه الحافظ أبو الفيض أحمد رحمه الله. حضر عليه شرح الأجرومية للأزهرى، وشرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر، للحافظ ابن حجر، ومقدمة ابن الصلاح، بنكت الحافظ العراقى، وسنن أبى داود سماعا، وأبواب الطهارة من نيل الأوطار للشوكانى، ومواضع من إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول له، وسمع منه بعض المسلسلات، ومجالس إملاء حديثية فى مواضيع مختلفة، وإجاز له إجازة عامة.

السيد / الحبيب المهاجى، حضر عليه بجامع القرويين ألفية ابن مالك بشرح المكودى، والسلم بشرح القويسنى، وأبواب الطهارة من شرح الخرشى لمختصر خليل.

الشيخ محمد بن الحاج السلمى المرداسى، حضر عليه بجامع القرويين ألفية ابن مالك بشرح المكودى، وتوضيح ابن هشام، ومختصر خليل بشرح الخرشى. وحضر عليه بالجامع الأدريسى، صحيح البخارى بشرح القسطلان.

ابن عمه الشيخ محمد – بفتح الميم الأولى – ابن الحاج، حضر عليه الألفية بشرح ابن عقيل.

أحمد بن الجيلانى الأمغارى شيخ الجماعة – أى شيخ علماء جامع القرويين – حضر عليه الأجرومية و،شرح المختصر للخرشى.

القاضى السيد / الحسين العراقى، حضر عليه بجامع الشيخ يوسف المليانى، جمع

الجوامع بشرح المحلى فى الأصول، وتفسير الجلالين بحاشية الصاوى.

القاضى العباسى بن أبى بكر البنانى، حضر عليه بجامع القرويين مقدمة جمع الجوامع، وقسم التوحيد من منظومة ابن عاشر، بشرح الشيخ الطيب بن كيران، وشرح البنانى على السلم، وعلم المقولات، وأجاز له إجازة عامة.

السيد / الراضى الحنشى - بكسر الحاء، وسكون النون - حضر عليه مبحث الأداء والقضاء من جمع الجوامع.

السيد / أحمد القادرى، حضر عليه باب الجنايات والقصاص من شرح الخرشى للمختصر.

السيد / إدريس المراكشى إمام جامع القرويين، حضر عليه شرح الخرش للمختصر.

الشيخ أبو الشتاء الصنهاجى، حضر عليه فرائض مختصر خليل، بشرح الخرشى.

أخوه الشيخ محمد الصنهاجى، حضر عليه أبواب البيوع والمعاملات، من شرح الخرشى للمختصر.

القاضى عبد الرحمن بن القرشى، حضر عليه من باب الإجارة إلى الآخر، من شرح الدردير للمختصر.

مولاى عبد الله الفضيلى العلوى، شيخ الجماعة، حضر عليه مواضع من شرح الزرقانى على مختصر خليل، ورسالة الوضع.

الشيخ عمران المصرى، حضر عليه بجامع محمد بك أبو الدهب، الجزء الأول من شرح الدردير للمختصر

الشيخ محمد حسانين العدوى، حضر عليه بجامع محمد بك أبو الدهب، من باب القياس إلى آخر جمع الجوامع بشرح المحلى، ورسالة فى آداب البحث والمناظرة، والفاتحة بتفسير البيضاوى.

الشيخ عبد المجيد الشرقاوى، حفيد الشيخ عبد الله الشرقاوى، حضر عليه شرح الخطيب، لمتن أبى شجاع فى فقه الشافعية.

الشيخ محمد عزت، حضر عليه فى الجامع الأزهر الربع الأول من شرح المنهج للشيخ

زكريا، فى فقة الشافعية.

الشيخ حامد جاد، حضر عليه بالقسم العالى للأزهر، شرح الأسنوى على المنهاج فى الأصول.

الشيخ محمود الإمام عبد الرحمن، حضر عليه شرح الخبيصى لتهذيب السعد فى المنطق، وسمع منه حديث الأولية، وكتب له سنده بخطه، حسب سماعه له من الشيخ أحمد الحلوانى، صاحب مواكب ربيع.

الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى مفتى الديار المصرية وشيخ علمائها، حضر عليه بالمسجد الحسينى دروسًا فى الهداية فى فقه الحنفية، وبالرواق العباسى بالأزهر دروس التفسير، وأجاز له اجازه عامة.

الشيخ دسوقى العربى، حضر عليه بجامع محمد بك أبو الدهب، دروسًا فى جمع الجوامع.

الشيخ عبد القادر الزنتانى الطرابلسى، حضر عليه برواق المغاربة بالأزهر، شرح السلم للملوى بحاشية الصبان.

«الشيوخ الذين أجازوه

السيد / عبد الحى الكتانى، سمع منه حديث الأولية، وأجاز له إجازة عامة. وحضر عليه بجامع القرويين فى شهر رمضان، دروسًا فى حاشية الشنوانى على ابن أبى جمرة، وسمع منه درسًا فى صحيح البخارى بالجامع الكبير بطنجة.

الشيخ محمد بن الحاج بعد أن حضر عليه صحيح البخارى، أجاز له إجازة عامة.

القاضى العباسى ابن أبى بكر البنانى، أجاز له إجازة عامة.

السيد / المهدى العزوزى، زاره بمحل عمله بفاس، وأجاز له إجازة عامة، عن أبيه عن جده، عن السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس والإحياء.

السيد / المكى البطاورى شيخ علماء الرباط، زاره فى بيته بالرباط، مع شقيقه الحافظ أبى الفيض.

وأجاز لهما إجازة عامة، ومن شيوخه الشيخ محمد بن سليمان الدمنتى البوجمعوى صاحب الحواشى على الكتب الست، وله ثبت مطبوع.

السيد / محمد بن إدريس القادرى شارح الترمذى، زاره بفاس، واجاز له اجازة عامة.

الشيخ شعيب بن عبد الرحمن الدكالى، سمع عليه درسًا فى صحيح البخارى بطنجة، ودرسًا آخر بفاس، وأجاز له إجازة عامة.

الشيخ عبد المجيد اللبان، هو أول شيخ بمصر أجاز له.

الشيخ محمد إمام السقا، خطيب الجامع الأزهر، زاره فى بيته بالحلمية وأجاز له إجازه عامة.

السيد / محمد الببلاوى نقيب الأشراف، وخطيب الجامع الحسينى، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ عبد الغنى طموم، إمام المسجد الحسينى، أجاز له إجازة عامة، عن الشيخ أحمد الرفاعى وغيره.

الشيخ طه الشعبينى شيخ الطريقة الشاذلية، زاره ببيته بحوش قدم، وإجاز له اجازة عامة.

ومن شيوخه الشيخ عبد القادر الشفشاونى، صاحب كتاب سعد الشموس والأقمار.

الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى، حضر عليه دروسًا فى سنن الترمذى، وأجاز له إجازة عامة.

الشيخ / أحمد رافع الطهطاوى، سمع منه حديث الأولية ، وأجاز له اجازة عامة، خصوصًا ما حواه ثبته الكبير المسمى بالمسعى الحميد إلى بيان وتحرير الأسانيد.

الشيخ محمد محمود خفاجة الدمياطى، شيخ علماء دمياط. اجاز له اجازة عامة، عن شيخه إلى أبى المحاسن القاوقجى وغيره.

الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ محمد كمال الدين ابن أبى المحاسن القاوقجى، أجاز له إجازة عامة.

أخوه الشيخ أبو النصر القاوقجى، زاره ببيته بالصنادقية، وأجاز له إجازة عامة.

السيد / أبو القاسم الدباغ، أجاز له إجازة عامة.

الشيخ عويد نصر الخزاعى المكى الضرير، أجاز له بما رواه عن شيخه الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى من مؤلفات ومرويات.

الشيخ محمد دويدار الكفراوى التلاوى المعمر، أجازله بثبت الشيخ عبد الله الشبراوى وبغيره، وهو يروى عن الشيخ الباجورى بالعامة.

الشيخ محسن ناصر، شيخ رواق اليمن بالأزهر، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ عمر حمدان التونسى، بعث له بالإجازة من مكة المكرمة.

الشيخ محمد عبد الباقى الأنصارى، بعث إليه من المدينة المنورة، بكتابه فى المسلسلات، وأجاز له، وبغيره من سائر المرويات، ومن شيوخه خاله علامة الهند الشيخ عبد الحى اللكنوى.

الشيخ بدر الدين الدمشقى، شيخ دار الحديث بدمشق، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ توفيق الأيوبى الشامى، إجاز له إجازة عامة

الشيخ سعيد الغرا الدمشقى، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ عبد الواسع اليمنى، زاره باللوكانده الهندية بجانب مسجد الحسين، وأجاز له إجازة عامة.

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، شيخ المالكية بتونس، بعث له ببعض مؤلفاته وأجاز له اجازة عامة.

الشيخ محمد زاهد الكوثرى، أجاز له اجازة عامة.

الشيخ على بن الخوجه الحنفى التونسى، قابله فى الأزهر فى طريقه إلى الحج، فاستجازه فأجاز له اجازة عامة.

السيد هبة الله الحسينى الشيعى من علماء الشيعة بالنجف، بعث له بإجازة عامة، ومن طريقه يتصل سنده بعلماء الشيعة الإمامية، فى النجف وإيران وغيرهما.

ثناء العلماء عليه

قال له والده فى بعض كتبه إليه: أنت فقيه صوفى محدث، وقال له فى كتاب آخر إليه: ستكون عالمًا كبيراً، ومحققاً شهيراً. وكان يثنى عليه بين أصحابه كثيراً.

وقال له شقيقه الحافظ أبو الفيض – حين رأى رسالته (نهاية الآمال فى صحة حديث عرض الأعمال) –: أسلوبك فيها وقلمك، مثل أسلوب الذهبى وقلمه. وكان يعتمد نقله، وتصحيحه لأسماء الرجال التى وقع فيها تحريف، ثقة منه بفهمه ومعرفته.

ونقل عنه العلامة المرشد الداعية الشيخ سلامة العزامى فى كتبه، محليًا له بالعلامة المحدث.

وقرظ العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى كتابه إقامة البرهان، ووصفه بالعلامة المحدث الناقد الداعية وكان يصفه الواعظ الكبير الشيخ محمد إسماعيل عبد رب النبى، بالمحدث النابغة.

وقال الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين، لجماعة من المدرسين بالكلية، عن المؤلف حيث جاء لزيارته: ترون هذا الشاب؟ ليس له نظير فى علم الحديث.

وهنأ المؤلف بعض أصحابه بنيله شهادة العالمية الأزهرية، وكان فى بيت الشيخ محمود شلتوت، شيخ الجامع الأزهر، فقال لمهنئه: نحن نهنئ الشهادة الأزهرية به، لأنه عالم من بلده.

وقال له مرة أخرى عن مقالاته التى كان يكتبها بمجلة الإسلام: مقالاتك أكبر من سنك.

يعنى أن ما فيها من علم واطلاع يقضى بأن سنه كبير، مع أنه كان شابًا.

وقال الأستاذ البهى الخولى عن المؤلف: يعجبنى فيه: أن علمه حاضر، إذا سئل عن شيء، أجاب. لكن غيره من الأزهريين إذا سئل، لا يجيب حتى يرجع إلى الكتب.

وقال الصحفى الكبير الأستاذ أبو الخير نجيب عن المؤلف أيضًا: هو خزانة علم.

مؤلفاته

الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج

اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء.

الأحاديث المنتقاة فى فضائل مولانا رسول الله.

الأربعون حديثًا الصديقية فى مسائل عامة اجتماعية. ط. مكتبة القاهرة.

الأربعون الغمارية فى شكر النعم. ط. مكتبة القاهرة.

إزالة الالتباس عما أخطأ فيه كثير من الناس.

أسباب الخلاص من الأوهام الواقعة فى التعليق على كتاب كلمة الإخلاص.
الاستقصاء لأدلة تحريم الاستمناء. ط. مكتبة القاهرة.
إعلام النبيل بجواز التقبيل. ط. مكتبة القاهرة.
إقامة البرهان على نزول عيسى فى آخر الزمان.
إقامة الدليل على حرمة التمثيل. ط. مكتبة القاهرة.
أولياء وكرامات. تحت الطبع، ط. مكتبة القاهرة.
بدع التفاسير. ط. مكتبة القاهرة.
تخريج أحاديث كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى فى الأصول.
تشييد المبانى لتوضيح ما حوته الآجرومية من الحقائق والمعانى.
تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة.
تنبيه الأواة إلى فوائد الصلاة.
جواهر البيان فى تناسب سور القرآن. ط. مكتبة القاهرة.
الحجج البينات فى إثبات الكرامات.
حسن البيان فى ليلة النصف من شعبان. ط. مكتبة القاهرة.
حسن التلطف فى بيان وجوب التصوف. ط. مكتبة القاهرة.
خواطر دينية ج ١-٢. ط. مكتبة القاهرة.
دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين. ط. مكتبة القاهرة.
الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين. ط. مكتبة القاهرة.
سمير الصالحين ج١-٢-٣. ط. مكتبة القاهرة.
ظهور المهدى.
عقيدة أهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام. ط. مكتبة القاهرة.
غاية البيان فى زكاة الفطر وفضل رمضان.
الغرائب والوحدان.
الفتاوى.
فضائل القرآن ج١-٢. ط. مكتبة القاهرة.
قرة العين بأدلة إرسال النبى إلى الثقلين.
قصة آدم عليه السلام.

قصة إدريس عليه السلام.
قمع الأشرار عن جريمة الانتحار.
كمال الإيمان فى التداوى بالقرآن. تحت الطبع، ط. مكتبة القاهرة.
الكنز الثمين فى أحاديث النبى الأمين
مصباح الزجاجة فى فوائد صلاة الحاجة.
نسمات القبول فى ذكر معجزات الرسول.
النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية. ط. مكتبة القاهرة.
نهاية الآمال فى صحة حديث عرض الأعمال.
واضح البرهان على تحريم الخمر فى القرآن. ط. مكتبة القاهرة.

تعليقات المؤلف على الكتب الآتية:

كتاب أخلاق النبى وآدابه، للحافظ أبى الشيخ.
بيان إعجاز القرآن، للإمام الخطابى.
بداية السلوك فى تفضيل الرسول، للإمام عز الدين ابن عبد السلام.
إرشاد السالك إلى مذهب مالك، لابن عسكر البغدادى. ط. مكتبة القاهرة.
الاستخراج لأحكام الخراج، للحافظ ابن رجب.
النصيحة فى الأدعية الصحيحة، للحافظ المقدسى.
بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ.
المقاصد الحسنة للحافظ السخاوى.
بشارة المحبوب بتكفير الذنوب، للعلامة القابونى. ط. مكتبة القاهرة.
الحبائك فى أخبار الملائك، للحافظ السيوطى.
تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية، له.
إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، له.
الباهر فى حكم النبى بالباطن والظاهر، له. ط. مكتبة القاهرة.
نتيجة الفكر، فى الجهد بالذكر، له.
الخبر الدال، على وجود الأبدال، له.
منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف، له.
تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة، لابن عراق.

الفهرس